www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

سلسلة الأدب

الحزن ميال للممازحة

قصص

محمد مستجاب

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3



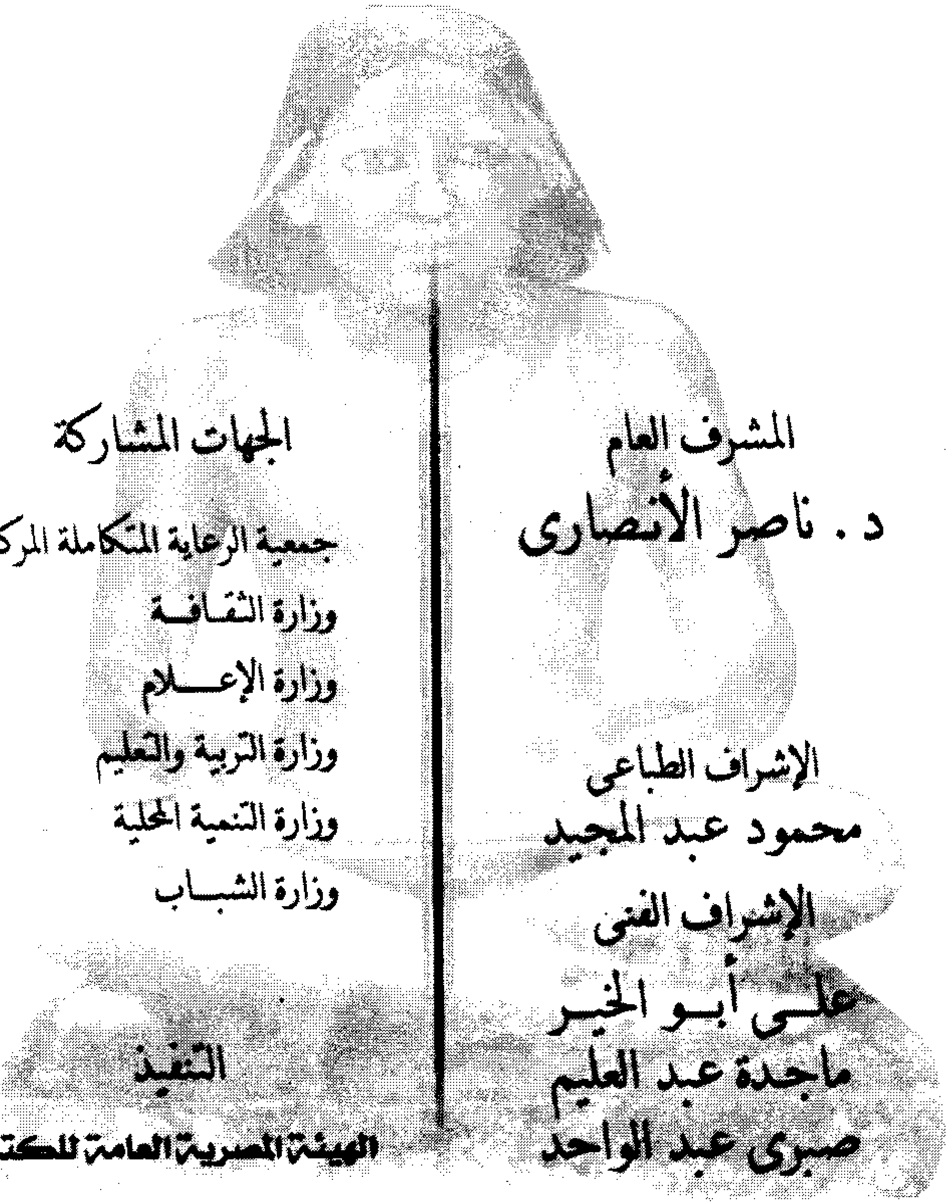
me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مكتبة الأسرة
القراءة للجميع
٢٠٠٦

برعاية السيدة

سوزان مبارك



المشرف العام
د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
على أبو الخير
ماجدة عبد العليم
صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحزن ميل للممازحة

محمد مستجاب

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

مكتبة الأسرة
٢٠٠٦

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحزن يميل للمازحة

لوحة الغلاف للفنان يوسف سيده، ١٩٢٢-١٩٩٤.

بطل الشعب المصرى العربى - زيت على قماش - ١٣٢ × ٨٦ سم

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

مستجاب، محمد

الحزن يميل للممازحة (قصص) / محمد مستجاب. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

٢٣٤ ص ؛ ٢٠سم

تدمك ٦ - ٣٧٧ -٤١٩-٩٧٧.

١- القصص العربية القصيرة

٢ - القصص العربية

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٨١٦ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977-419-377-6

ديوى ٨١٣,٠١

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

توطئة

انطلاقًا من شعار «مكتبة الأسرة» هذا العام: **الثقافة لغة السلام**، والذى طرحته السيدة الفاضلة **سوزان مبارك**، انتقت **مكتبة الأسرة** حوالى ٣٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيرًا إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن **مكتبة الأسرة** من خلال سلاسلها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عامًا بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة ، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين **مكتبة الأسرة** ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمئويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير **عبدالرحمن بن خلدون**، الذى يعد واحدًا من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه الحضارة الأوروبية الحديثة، **فابن خلدون** يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف **مكتبة الأسرة** فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستنير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تقديم

ازدحمت حياة الأديب الكبير **محمد مستجاب**؛ بالسرد القصصى والروائى، وزادت على ورقات الكتابة، وأصبح من الطبيعى أن يواصل سرده على جلسات المقاهى والمنتديات، تمامًا كمنشدى السيرة الشعبية فى ريف مصر.

عاش محمد مستجاب حياة مثيرة، لم يتح له أن يكمل تعليمه، فاشتغل فى بداية حياته عاملاً فى السد العالى، ومن هناك بدأ فى مراسلة الصحف والمجلات، كانت البداية بأسماء مستعارة، يوقع بها، ولما نشرت هذه الكتابات، تأكد من صدق تجربته، فنزل القاهرة، والتحق بوظيفة صغيرة بمجمع اللغة العربية. وسرعان ما انخرط فى الحياة الأدبية، كأحد أبرز أعضائها، وكانت روايته الأولى «من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» هى الشرارة الأولى التى لفتت إليه انتباه النقاد والقرَّاء، حتى عثر على ضالته المفقودة، حينما اخترع شخصيته الأسطورية «مستجاب» تلك الشخصية الفنية الثرية الفريدة، التى دارت حولها كثير من قصصه

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المتتابعة، مثل «مستجاب الأول» و«مستجاب الخامس» و«مستجاب السابع» وغيرها. حتى أصبحت هذه الشخصية، ذات تاريخ وجغرافيا وسلالة يتتبعها القرّاء، اشتهر مستجاب كأحد أبرز الكتاب الساخرين الحداثيين، وأصبح صاحب عمود صحفى دورى فى الكثير من الدوريات، ومن أشهر أعمدته «جبر الخواطر» و«رقبة لامؤاخذة الحمامة» و«حرق الدم» و«الواحة» وغيرها من العناوين التى رسختة كأحد الوجوه المهمة فى خريطة الكتابة الصحفية.

قدم محمد مستجاب للمكتبة العربية، العديد من الإصدارات التى ضمت مقالاته الأدبية، كما قدم عددًا من الأعمال الإبداعية التى تعد حلقات أساسية فى سلسلة السرد العربى المعاصر مثل «مستجاب الفاضل، كلب آل مستجاب، هذا ليس كتاب البأف، إنه الرابع من آل مستجاب، القصص الأخرى، والحزن يميل للممازحة».

نال محمد مستجاب جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٥، ورحل عن عالمنا العام الماضى، وتقديرًا من الدولة لدوره الكبير فى إثراء الحركة الأدبية، منحته هذا العام جائزة الدولة التقديرية.

والكتاب الذى تقدمه مكتبة الأسرة هذا العام هو «الحزن يميل للممازحة»، والذى يضم ثلاثين قصة قصيرة، ويعد آخر إصداراته الإبداعية، وقد صدرت طبعته الأولى عن دار مصر المحروسة عام ٢٠٠٢، ويسر مكتبة الأسرة، أن تهديه لقارئها، واثقة من أنه سيجد فى سطوره كاتبًا من طراز فريد، رحل، وستظل جملته الإبداعية، الحادة، الجادة، ساطعة فى كتاب السرد العربى الحديث.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قطار إلى المرج

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

-١-

عندما دلفوا إلى القطار كانوا يعتقدون أن القطار ليس قطارا بطيئا كالحا فارغا، وصوته مكتوم أيضا، حتى القضبان ذاتها - لم تكن فيما يبدو - منتظمة التوازى، أو ربما كانت بقايا قضبان مخلوعة من سكك أخرى، ولما انخبطت السيقان فى الركب صاح فيهم الشرطى الشرش - له شوارب كثيفة أيضا - بألا يستعجلوا لأن القطار سوف يقف بما فيه الكفاية، وما كانوا يستطيعون مفاداة التخابط، لأن القيود ظلت تحول دون مرونة حركتهم، حتى عندما اتضح لهم أن كل مقاعد القطار خالية وتحت أمرهم، وجلسوا - أحدهم كاد يسقط على الآخر فصلصلت القيود - فى أول مقاعد، أمرهم الشرطى أن يقوموا، فقاموا، وعند منتصف العربة أمرهم بالجلوس فجلسوا، ونظر الشرطى إلى النوافذ، كانت كلها محطمة دون خشب أو زجاج، ودون أية أسياخ أو عوارض تحول دون القفز منها، فاضطرب الشرطى قليلا وتعمد ألا يترك للمقيدين فرصة أن يدركوا ما جال فى خاطرهم،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وأمـرهم من جـديد بأن يجلسـوا مع أنهم كـانوا قـد جلسـوا الثـلاثة: الأوسط الذى ظلت ذراعـه اليـمنى مغلولة من المعصم فى معصم رفـيقـه الأيمن، وذراعه اليسرى مغلولة من المعصم فى معصم رفيقه الأيسر.

وجلس الشـرطى قبـالتـهم، هكذا تقضى تعليـمـات الأمن حتى يظلوا فى مجال رقابته، وأخرج الأيسر علبة سجـائره بيده الحرة وحـاول أن يخرج واحدة لكن العلبة انفـرطت فـوقـعت على الأرض سـجـائر كـثيـرة وأمـرهم الشـرطى بجمعها.

فتحرك الثلاثة حركة قلقة مناسبة ساعدت على أن يجـمـعوها، وأن يضـعوا بعـضـها فى أفواههم، وأن يلقـوا بواحـدة للشـرطى، فـوقـعت على الأرض، حـينئـذ انحنى الشـرطى وتناول السـيـجـارة من فوق الأرض، وهو يسب ويبرطم غاضبا.

ومـرت فـتـرة طويلة، قـبل أن يصـبح القطـار قطارا، فقـد انـدفـعت جـمـاعـة عـابثـة دخلت العـربات وخـرجت منهـا وهـى تضـحـك وتتناهش، ثم أفـراد تفـرقـوا على المقـاعـد وهم يسـألون عن موعـد قـيـام القطـار، وكـانت الإجابة متعددة ومتناقضة وغير مـيسور تحديدها، الآن أو بعـد سـاعـة أو بعـد يومين، فـقطار المرح مـثله مـثل غيـوم الشـتـاء فى عـز البـرد، ويتـواكب فـى عـز الدفء، يمكن لك - وبالتـأكيـد فـإنك استـخـدمـتـه - أن تراه ذاهبـا آتيـا طوال السـاعـات فى ضـجـة وصـخب ومـرح ونشـاط ثم تراه وقـد ركن فى موقـع، فـتـعتـقـد أنه سـوف يواصل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المسيرة بعد قليل، وتذهب إلى مشاويرك ومهامك وتعود فتجده لا يزال واقفا، ليس واقفا فقط، بل يظل واقفا وهو يهدر ويصرخ ويملؤك الإحساس المؤكد أنه فى طريقه للقيام لدرجة أنك تلهث جاريا إليه وقافزا فيه، ومع ذلك فإنه لا يتحرك، وأصبح على الذين أجادوا استخدامه أن يتركوا له أنفسهم دون شد وجذب وكلام أو توتر يطلع.. أو لا يطلع، وتضع رأسك - مثل واحد من المقيدين فى الأغلال - على ورك الذى يجوارك وتفرد طولك وتنام.

وبالطبع كان صعبا على المقيدين الثلاثة أن يناموا جميعا فى نفس الوقت، ولذا تركوا ثالثهم ينام تاركا ذراعه المقيدة بين أحضان الثانى، وكان واضحا أن الشرطى تعود على هذا القطار حتى إنه لم ينبس بكلمة ذات معنى، مرة أو مرتين هش عيالا دخلوا وتقافزوا، ثم ركن نفسه على مسند القطار فخشى أن ينام، وحينئذ انعدل وصلب جسده فى يقظة واضحة.

لكن ذلك لم يدم طويلا، فقد دخلت العربة امرأة، من أول لحظة شدت العيون الكليلة القليلة، ضخمة وارفة ترتدى أسود الجنوب أو أسود الغجر أو أسود الأرياف أو أسود المدن، ورمقت الجالسين أو النائمين بعيون واسعة ثم انخرطت إلى مكان وجلست فى هدوء، نظر إليها الذى هو نائم والذى يجلس قبالتها والذى يعابث صديقه، ثم لم يلبث الجميع أن استكانوا منصتين لصوت القطار آملين أن يتحرك، فعاد

www.liilas.com/vb3 me3refaty.blogspot.com **معرفتي**

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الشـرطى للبـرطمـة الخـاليـة من الحـروف، وأخـرج سيجارة من جيبه ووضعها فى فمه، ثم قام ووضع يده فى جيب المكبل بالقيـود ـ وهو الأوسط ـ وأخـرج منهـا «علبـة كـبـريت» وقـبل أن يعـود إلى مكانه، أشـار له الأوسط أنه فى حـاجـة إلى دورة المياه، حـينئـذ انفـعل الشـرطى ـ بصـوت يبـرطم أيضـا ـ ثم مـا لبث أن صـاح أنهم كـانوا فى الخـلاء، فلمـاذا يريد المرحـاض الآن وظلت عـيـون كـثـيـرة مـعلقـة بالشـرطى، كـان إنفـعـاله مـفـهـوما، لـكنه، مـاذا يفـعل غـيـر أن يحـرك المقـيـدين الثـلاثة، ويصـحـبـهم إلى دورة الميـاه الضـيـقـة كى ....، وأشـار واحـد من الأحـرار ـ أى الجـالسين دون قـيـود ـ وقال فى نية حسنة: يا أخى فك القيد، ولم يكمل فقد نهـره الشـرطى أن يلـزم حـدوده وإلا ..، فلزم الجـمـيع الصمت، ولم يجد المكبل وسيلة سوى أن يقف، ويحاول أن ينزل مـلابسـه، فـانزعج الناس، وعـاد الشـرطى إلى غضبه، وقام فصحب الثلاثة إلى المرحاض، ليستطيع الأوسط ـ بقدرة قادر ـ أن يدخل نصف جسده، وذراعاه مـسـحـوبتـان للخلف، وأن يقـضى حـاجـتـه على باب المرحاض صامتين، وحين عادوا إلى أماكنهم وجدوها قد احتلت بآخرين، فغضبوا جميعا وكادوا يتماسكون مع المحتلين، فى اللحظة التى بدأ فيها القطار يتحرك ويزحف، والتى فيها أيضا امتلأ القطار بالناس عن آخره.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حـركـة القطار امـتـصت كل التـوتر والجلبـة، وقـال واحد بصـوت عال إنه يستطيـع أن يتـحمل حـركة القطار وهـو يسـيـر يومين ولا يتـحـمل وقـوفـه خمس دقـائق، فلم يرد عليه أحد، وانزرق رجل معه قرد إلى الداخل مع أن القطار كـان فى سـرعـة لا تسـاعـد علـى التـعلق به، واعـتقد الناس أن الرجل سوف يبدأ جـولة جمع النقـود تحت توقيعـات الرق وترقـيص القـرد، لكن الرجل جلس فى أرضيـة العـربة ـ كـان يمكنه أن يجلس على مـقـعـد ـ وأخـذ القرد فى حـضنه وظل صامـتـا غيـر مهتم بالوجل الناتج عن دخـولهـمـا، وعـاد الشـرطى لانفعـاله حينمـا طلب منه واحد من الثلاثة المكبلين ـ أعتقد أنه الأيمن ـ الذهاب إلى دورة المياه، ولعن الشـرطى أباهم وأبا الذى وضـعـه فى هذا العـمل الردىء، وضـحك أناس وسـخـر أناس، لكن الشـرطى لم يجـد مـفـرا من رفض الطلب وظل متبـرما فقام أحدهم بخلع سرواله بيده الحـرة دون وجل، فـأنتـشـرت الرغـبـة فـى المهـاترة فى كل المكان، وصـرخ واحـد محـتـجا وواحـد مصـدرا أصـواتا من أنفـه غيـر مهـذبة، وقلد واحـد صـوت بكاء طفل فانهمـرت فى الجـمـيع ضـوضـاء تقلد الأطـفـال، ورمـقت المرأة وجـه صـاحـب القـرد، الذى ظل مـحـتـضنا قـرده والرق فـى يده يتـذبـذب بين حين وآخـر، هذه الذبذبة التى تحـولت فى هدوء ـ رغـم الجلبـة ـ إلى إيقـاع هـامس خـافت دقـيق، إيقـاع ناعم مـثل دبيب شـخللة الأطـفـال أو زقـزقـة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

العصافير، بدأ التوقيع واهنا لكنه كان ملحوظا تسرب إلى الناس فابتلعوا سخافاتهم وبقايا تعليقاتهم، وأنصتوا دون احترام كبير، حيث عادت التعليقات فتوقف الرجل عن التوقيع، وتململت المرأة الجالسة وظلت صامتة، وسوى واحد من المعتقلين ورك جاره وعاد للنوم عليه.

غير أن مجرد عودة الرق للصمت جعل الناس - كل الناس - ينتبهون، فعاد الرجل من جديد يعابث الرق بأطراف أصابعه، كان الجو خانقا وإيقاعات الرق تعلو قليلا ثم تخفت، ونظر صاحب القرد إلى المرأة طويلا، فتعلقت عيونهما، وظل القرد يرمق الجميع بحركات عيونه الدائبة رمشا، يود لو يخرج من وكره فى حضن صاحبه، هذا الذى عاد يعابث الرق، فتبدأ الدقات تتصاعد، وكلما تصاعدت انخفض الضجيج، حتى القطار بدا أنه يهابر كى يبتلع خبطات ضلوعه فى القضبان، وكان الشرطى لا يزال مشمأنطا ضيق الصدر، لكنه - لم يلبث أن استرخى، حينئذ تسلل صوت أجش ذو نتوءات من العذوبة.

أنا اللى جرحنى برمشه وخلانى أبات مكوى قعدت أعالج فى قلبى والفؤاد مكوى لما انت مش قد الرموش ما كان بلاش النظر وبلاش تعاتب حبيبك جوه الفؤاد مكوى.

وكاد صوت ساخر يقطع هذا البوح لكن واحدا صاح: هس، فقد كان الصوت الذى يغنى هو صوت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المرأة الجالسة بعيدا، وعندما عادت لتغيير اللحن عند وصولها إلى ـ ما كان بلاش النظر ـ صاح أناس: الله، وبدأت أصابع القرد تغير وتنوع فى إيقاع الرق، لتعود المرأة الجالسة بعيدا إلى ارتفاع خجول فى الصوت، هذا الصوت الذى نثر العذوبة الخشنة فى المكان، فأعاد الجميع تربيع أجسادهم فى مواقعهم، وانتصبت أجساد المقيدين وجلسوا جميعا دون أن ينام أحد على ورك جاره، وتلوى القطار على قضبانه، هادئا قليل الضجيج، وزاد الرق انفعاله فبدأت إيقاعاته تعلو أكثر، وتتناثر الدقات الرقيقة مفروشة أمام الصوت المنساب، وياللى فرشت لك عيونى فى ضلها ترتاح، سايبنا فى البرد ورايح فى الدفا ترتاح، ما كانش لازم تغادر والقلب مش ناقص، ده القلب سلمك نفسه بالضبة والمفتاح، الله، وعاد الرق إلى صمته ثم اندفع أكثر، واشرأبت الرقاب كلها معجبة وممعنة فى المرأة التى تغنى بعيدا، والرجل الذى يدق الرق فى مكان أبعد، والنغمات تتضوع فى جو المكان ممتصة اختناقه، لكن الصوت هذه المرة لم يصدر من المرأة، بل جاء من المقيدين، بالتحديد من الثانى الوحيد المكبلة كلتا يديه، أنا كنت وردة تفتح قلبها لنداك، حيطان جوامع وزنازين لانت زى الندى لنداك، ما كنت قاعد فى حالى ألعب مع الأنداد، إيه بس خلا القلب يفتح فتحته لنداك. كان الرجل يغنى وقد أغلق عينيه، وحاول أن يرفع يده ليضع كفه على صدغه إتقانا للعودة فى الغناء فاكتشف أن يده مغلولة، واضطرب الصوت واختنق بالشجن،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حينئذ رفع يده المغلولة فى معصم جاره ووضعها على صدغه، ويد جاره معلقة فى هواء القيود، وكان المنظر قاسيا وساخرا وهازئا ومفهوما، لكن الرجل عاد إلى إغلاق عينيه مثقلا بارتفاع يد جاره، واندهش الناس وكأنهم لم يكتشفوا أن الرجل مقيد ومكبل من معصميه سوى الآن، وعاد الرجل يجلجل بصوته الذى كان محبوسا، وانسابت الأغانى من الفم إلى الصدغ إلى المعصم إلى القيود، والناس يمعنون فى هذه القيود التى تصلصل محدثة أصواتا جارحة مرهقة مع إيقاعات الرق، وذبذبات الصوت، وعندما عادت المرأة ـ من جديد ـ تركب اللحن تخفيفا عن الرجل، بدا واضحا أن المكان أصبح تحت سطوة هذه الحناجر المتباعدة، فقد وقف الرجل شادا زميليه بقسوة، وقف وكأنه لا يستطيع التفاعل إلا إذا غنى واقفا بل ورفع يده ليضع كفه على صدغه فاستحال عليه الذى كان ممكنا وهو جالس، والشرطى أسقط اشمئناطه فى أرض العربة. وظل هائما فى هذا الشجن المتدفق، لدرجة أن الرجل عندما ركب لحنا جديدا على إيقاع للرق مغاير، كان ينظر فى عينى الشرطى، واللى كواه الليل بالشوق ما يعرف للنهار راحة، والشفو اللى تاكل ما تعرف للعشق راحة، والإيد اللى تتقيد ما تعرف للغرام راحة، وإن كنت مش فاكر عذابى يبقى أنساك راحة. بل إن صاحب الرق ـ أو صاحب القرد ـ وقف تاركا القرد يلعب بسلسلته بين أقدامه، وخلص تماما للنقر على الرق بشكل أكثر راحة وتجاوبا وتفاعلا، وحتى الذين

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وقفوا فى العربة وجدوا الآخرين وقد تزحزحوا ليجلس الجميع، وتجاوبت أصداء الغناء فى كل ركن وجسد وقلب، المرأة الجالسة ـ الوارفة ـ تستقبل اللحن وتتغذى به جوانحها ثم تجتره ليتلقاه الرجل المكبل فيفرده ممتدا على مساحة اللوعة كلها، وصاحب القرد يزغزغ فى الألحان وتنويع الإيقاع ليرد اللحن للمرأة، الله، والناس يمصمصون ويهمسون ويصمتون، واليد المكبلة ترتفع لأعلى لكى تصل الكف الصدغ فيحس الجميع بأن كل هذا التفاعل مجروح بصليل القيود، هذه القيود التى قام العسكرى إليها فأدخل فيها المفتاح، أدخله فى رقة وحنو لا يقطع عن المغنى اندماجه، وأخذت القيود تصلصل كأنها زرازير تنطلق، وعاد الشرطى إلى موقعه حيث ألقى القيود بجواره، وأخذ يصفق فى حبور فصفق الجميع، وكان الإجهاد قد بدأ يستشرف الطريق على وجه المرأة فأعادت تسوية غطاء رأسها، وبدأت تركب لحنا جديدا، وجاوبها هذا الذى حرر حديثا دون أن يضطرب حينما وجد كفه منصاعة سلسة مفرودة الأصابع فوق الخد والأذن، فقط اندفع الغناء أكثر شدوا وأعمق شجنا، يلف الصوت فى منحنيات الغربة والسهد وأرق العشق والهجران، ويعاتب الزمان والعوازل والذكريات هائما فى الفلوات، يحرك ذراعيه كلما تدحرجت الكلمات من لسانه مخترقة الأفئدة المعذبة المستعذبة، وتترك فراغات بين كل لحن وآخر كى يبرز صاحب الرق مفاتن إيقاعات الرق، فتتناول المرأة آخر الإيقاع لتنغمه ناعما دقيقا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ساخن الشوق كأنها تغسل به ضجيج القطار، الله، ويكون الرجل قد تهيأ وبدأ من جديد. ما أنا عارف بساتينك كلها أشواك، وإيه فايدة الريحة من غير بساتينك، ده أنت اللى كنت طوال العمر بستانى، صوابعك كلها دامية من الأشواك، وتنصهر الأنفاس فى القلق الشائك المشتاق المكدود، والقطار يقف ويستقبل آخرين، ويغادر آخرون، وبين الآخرين تتضوع الأنفاس بالغناء والشدو والتصفيق..

ثم وقف القطار

جلس الرجل محتضنا قرده.

ونزل أفراد..

وجلس الرجل وسط رفيقيه، وبدأت الضجة تعود والسكوت يعود، والألفاظ النابية تعود، والسخرية تعود..

وامتدت يد الشرطى إلى الأيادى الأربع اليد اليمنى فى يد الأوسط اليسرى، ويد الأوسط اليمنى فى يد رفيقه اليسرى وأغلق الشرطى القيود جيدا، وعاد إلى موقعه، حاول الأوسط أن يخرج سيجارة، فأخرجها له رفيقه بيده التى بلا قيود.

وتحرك القطار وكان الحزن قد حط على المكان تاركا أصوات القطار ضاجة تعصف، وتدك، ليصبح القطار قطارا..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الصحراء

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

• قررت أن استدرجها إلى البيت.

وهالنى أن القمر جاء فى غير موعده، منحنى فطائر ومشروبات ونقودا، وعندها جاهد ـ مخترقا النافذة ـ ليعود إلى سمائه: مزقت المسامير النافرة هالته فصرخ، انزعجت النافذة وصكت وجهى بمصاريعها، ظل الدم يغرق المكان، أحسست بالألم ينتشر بين الكتفين، قليل من الماء الساخن يمتص الوهن لا ماء، وإشعال سيجارة يخفف من الأمر، لا سجاير، لماذا لا أبارح المكان؟ لكنى لم أستطع أن أخطو فوق جثة القمر.

❖ قالت: أى بيت آخر غير بيتك؟

فى الصباح شكوتها إلى الشمس، فأشارت الشمس إلى الكلاب، استقبلتنى الكلاب هاشة مرحبة، حكيت لها ما حاق بى، لم أذكر شيئا عن أمى أو أبى، كان الجو غائما، وظلت الأنوار الهزيلة مكومة تئن بجوار الأحجار، قالت الكلاب إن هذه الأمور يصعب النباح فيها الآن، وأحسن الوسائل تجدها فى الصبر،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وأردفت الكلاب: لا تحـــاول أن تلعب بذيلك، ظللت صامتا، زامت الكلاب فأحسست بالوجل.

❖ وقالت: إنها لن تمنحنى شيئا، ارسم لى ثعبانا.

لم يعد هناك ما يدعو للقلق، للأصدقاء شوق مغرد، حمق مزغرد، الريح تحب سعف النخيل، فحتى الثعابين غمرتنى بالرغبة، قال الفيل: لا تنم كثيرا فى الفراش، اكتب شكواك على رغيف الخبز ثم مزقه قطعا وضعه تحت إبطك. وجاءت السحالى بالدستور لكى أركله رصاصة رصاصة، وارتجفت الوطاويط فسهرت طول النهار، وأغلقت الباب خلفى مبتسما، متى رأيت القط آخر مرة؟

❖ مدت كفها لتمسح بها على ظهرى، وطلبت منى أن أبكى.

الطوفان مرة والنيران مرة والصليب قطعتان من الخشب، المضخات تسحب من العمق وحل الحكمة، وكل الحوائط تتلاقى فى جمجمتى، أى سرداب ذاك الذى يصلح للهرب؟ استقبلنى الأخطبوط بذراعيه وقدم لى إكليلا من الزهور. وقالت الضفادع سر الحياة يكمن فى القفز، كيف يتسنى لى أن أقلى بيضة نعامة فى قليل من الزبد والمقدونس، لا تنسى الفلفل الأخضر، يصبح المشروب القوى هنا ذا فائدة، جاءت الأرانب وبدأت ترعى فى صدرى، بحثت عن الثلج، ثم بحثت عن الماء، لم تكن بيضة النعامة متقنة النضج.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

❖ تراجعت للخلف وصرخت محتدة: إياك أن تضمنى بذراعيك مرة أخرى.

أنا الوحيد الذى يعرف الفرق، لكن الفرق ضاع فى مقاعد السيادات، فإذا كنت انتظرتك كل هذه العصور، فلماذا الجدل الآن؟ لا تشق التفاحة حتى لا ترى دودها الملتوى، لا تدخل الدار حتى لا ترى فيرانها المتقافزة، لا تنظر إلى السماء حتى لا تقع فى حفر الأرض، لا تخلع أنيابك حتى يهابك الأصدقاء، لا تقرأ أشعارك حتى يطمئن إليك البعوض، سيزحف البرص على الأرض ويكمن الفيل فى شقوق السقف، هذا عصرك المضىء الذى تقتات فيه بشطرة من الشعر ولقيمات من النثر، والأبجدية كنافة القانون. قال الخروف: أنا المجاز الذى تنحنى له عبورا إلى مدخل المعبر، طلب منى الغراب أن أتوقف عن رشف دم القرابين، قالت العقارب: من يطأنا لا يعرف الطريق إلى الرب.

❖ ضممتها بكل قوة الذراعين فشهقت، ثم ضحكت ساخرة.

الثوم والزيت وذيول الشياطين، الليل الخاوى سلحفاة غبية، جاءت الشمس مرتين: مرة وهى تلعب الكرة تحت الرموش، ومرة وهى مصابة بحمى الجليد، سوف أجازيك بما لا طاقة لك به، أن تعيش مع من لا تحب، وتتنفس ما لا تريد، وتكتب ما لا تفهم، وتقرأ ما لا قيمة له، وترتدى ما يهين جسدك، وتحل الكلمات

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المتقاطعة، وتحفظ أقوال من يذيقونك السعير، وتدفع نفقة لمن يسلبك هدوءك، وتتجول بين السحب دون أن تضع قدمك على الأرض، وتنام عند إشراق الحلم، وتستيقظ أمام التليفزيون، ظللت منحنيا أصغى، مددت يدى ووقعت بالقلم فى خانة الرافضين، ضحكت التلال وربتت فوق ظهرى باستهزاء، أنت محروم حتى من الكفن. ومن الدفن، قررت أن أعود أدراجى، ظلت ساقاى تسوخان فى الرمل، وبدأت الريح تتقافز فوق ظهور قطيع الحمير، خشيت أن أقع فى براثن الكلاب، أو مخالب القمر، أو أنياب الزهور، أو دورة المراجيح، أو أن تأسرنى ابتسامات اللوائح والعقارب والأصدقاء والقوانين، ظلت ساقاى تسوخان فى الرمل، والموسيقى تتراقص مع العقارب، والدفء الغليظ يحتضن جسدى،

❖ لكنها ظهرت فجأة فى الأفق، ناشدتنى أن أستدرجها إلى البيت، وكانت الرمال قد امتدت تحت رموشى لتصنع لى أفقا ساكنا، والثعابين قد انشغلت فى التهام جثة الشمس.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 ** معرفتي ** me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

هروب

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قمت مبكرا فاتضح لى أنْ حزنى لا يزال حارقا، اغتسلت بالماء والملح ودعوت على رئيس التحرير بالدمار، كانت أمى تقول لى: الدعاء بهذه الطريقة يصبح نافذا. احتسيت كوب الشاى وعدت إلى الدعاء على رئيس التحرير بالدمار من جديد، كنت قررت أن أزحم السماء بالدعوات علّ واحدة منها تخترق الحجب وتنزل صاعقة فتلف جسده بقماش أبيض وسوائل مطهرة بأوراق الجريدة فى يوم العدد الأسبوعى، ذى الصفحات المكتظة، ونزلت إلى الشارع.

دهمنى إحساس أن أفصل بينى وبينه هذا اليوم، أى أن ألجأ إلى حديقة أو مقهى أو دار سينما، فليس من المعقول أن أترك رئيس التحرير فى العاشرة مساء ثم أدخل عليه - وما زلت متورما مخنوقا - فى العاشرة صباحا. يوم واحد يتيح لى أن ألتقط أنفاسا وأرى شجرا ووجها حسنا وبقعة مياه ولو كانت فى مساحة بركة صغيرة، والصباح لا يزال مبكرا وكوب آخر من الشاى فى المقهى المختار قد يغير كثيرا من الأفكار الحارقة. غير أنى لم أعبر الشارع، فقد كان المقهى المختار مغلقا، وبعض الأفراد الذين أعرف وجوههم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يرصون الكراسى أمام المقهى المغلق، ولما كنت من زمن لم أذهب إلى حديقة الحيوانات فقد أراحنى أن أتحرك إلى الشارع الكبير بحثا عن مواصلة للحديقة. ثم لم ألبث أن فكرت فى السير على الأقدام، كى أذيب ملح التوتر من الأعصاب، وكى أهلك وقتا آخر، لكن رئيس التحرير ظل راكبا فوق أكتافى، وقد هززتها مرات لأنفضه عنى، وخشيت أن أظل أهز أكتافى فلا أستعيد ثباتها، وكان بعضهم ناظرنى مرات أثناء عمليات الهز المتوالية، فشعرت بحرج، بل توقفت كثيرا، وأحسست بأن الأمر لا يعالج بهذه الكيفية، وكنت - فى وقت آخر وفى قصة أخرى - قد قررت أن أقتل رئيسا آخر للتحرير، ولم أفعل شيئا، وجاء بعده صف من رؤساء التحرير، وضايقنى أنهم يأتون فى كل مرة لصالحى لكنهم - وبمجرد الاحتكاك - تبدأ تروسى تطقطق فى تروسهم، حتى إن المؤسسة تضيق دائما بهذه الطقطقة. كان صوت الطقطقة مزعجا، ولم أكن صالحا للقتل، ولا للتعالى، ولا للنسيان، ولا للمرح، فكانت جهودى فى التوافق معهم تضيع، حتى إن بعض هذه المحاولات تحول إلى نفاق واضح وسخيف.

عندما وصلت فى تفكيرى إلى هذه النقطة أيقنت أن الأمر لا يعالج فى حديقة الحيوانات، أو فى المقهى أو فى السينما، وكانت الحديقة اقتربت بسورها المنمق بالحديد المدبب، وخشيت لو اقتربت من بابها لوجدته مغلقا، لأن ذلك لو حدث فسوف أحس بالتواطؤ ضدى، أى تترسب فى كيانى أن رئيس التحرير وراء إغلاق هذه الأبواب، فاضطررت أن أتحاشى ذلك،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وابتعدت عن أى من أبواب الحديقة بل وأبعدت نظرى عن الأبواب واستبعدت ـ بالتالى ـ فكرة اللجوء إلى السينما، وهالنى أننى أحسست بالراحة وأنا أدور حول نفسى غير قادر على توجيه جسدى وجهة معينة حينئذ، وفى مثل هذه المناسبات أو الأحوال، تطفو على الذهن الغائض فى الرغبات القديمة، امرأة أو بنت، رحلة صيد تطارد فيها الغزلان المنهكة، حريق تنقذ فيه جميلة الجميلات، ثم تمتلكها، نقود كثيرة تشترى بها قصرا ونساء وبحيرة، نقود أكثر تشترى بها جريدة.

مرة أخرى بدأ رئيس التحرير يهز أقدامه فوق أكتافى، سأستبعد الجريدة من الأمنيات، جناحان أطير بهما فوق المدينة وأخترق أجواءها الضبابية، فتح يا أعمى، الله يخرب بيوتكم، وكان الصوت غاضبا، والسيارة تكاد ترتطم بجسدى، جريت محرجا وغاضبا والغزلان تخترق الحرائق، وتقفز فوق أسوار القصور والبحيرات، فتح، يا أعمى الله يخرب بيوتكم، وكان الرجل سقط على الرصيف وتناثرت أرغفة الخبز فى اضطراب.

استندت إلى حائط، ظللت أمعن فى العابرين وكانوا قلائل، واحد منهم مر ثلاث مرات متوالية، وآخر مرة كانت عينه فى عينى، اقترب منى ـ وهو لا يزال ممعنا ـ وطلب منى ورشق سيجارة فى فمه، عود كبريت وضعت يدى فى جيوبى بحثا عن الكبريت ثم تذكرت أننى لا أحمل الكبريت، لماذا؟ لأنى لا أدخن،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وضع يده على كتفى وسألنى، فى هدوء شديد، لماذا أقف هنا؟ ولما لا أقف هنا؟ لف ذراعه حولى - فى هدوء وقوة - وقال وهو يبتسم : إنه يريد أن يرى بطاقتى الشخصية لأنه يشتبه فى شخصى، كنت قد تحركت معه، نزعت ذراعه من جسدى غاضبا وقلت فى هدوء ذى عصبية مكتومة:

أنا صحافى..

قال: أريد أن أرى إثبات شخصيتك.

قلت مدافعا عن حقوقى: وأنا أريد أن أرى إثبات شخصيتك، أليس هذا من حقى؟

من حقك بالطبع، وأخرج بطاقته وعليها صورته متوجة بنسر الشرطة، لكنى - حينما عدت لأضع يدى فى جيوبى - لم أجد أيا من بطاقاتى، لا الشخصية ولا كارنيه النقابة، أعوذ بالله، قال فى صرامة وقوة وسخرية، أعوذ بالله منك يا أخى، وكنا قد وصلنا إلى سيارة بجانبها شخصان، وطارت بى السيارة لتضعنى فى مركز الشرطة.

فى آخر نهار ذلك اليوم جاء رئيس التحرير بشخصه، جاء إلى قسم الشرطة مبتسما كعادته، متململا كعادته، ورمقنى بعيون صياد وهو يوقع أوراق استلامى. سرت خلفه، سرت فى نشاط أليم خلفه، نظر إلى، فانحنيت، فتسلقنى بجسده القوى، وبدأ يهز أقدامه فوق أكتافى.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قاتل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مـا كـدت أخطـو من المدخل الخـالى، حـتى وقـعت عـيناى عليـه، وأطلقت عـيناه نظرة سـريعـة لامـعـة، ومـبتسـمـة أيضـا، فـابتسـمت بينمـا وقف لمصـافحتى، وشـدنى مـن يدى، ثم من ذراعـى، وصـاح فى كـرم، إن كنت أحب أن أجلس على مقعد أم أجلس على الأرض كما يجلس هو؟ وسحب المقعد وضحك بصوت عال: الأفندية يحبون الكراسى. ونادى: شاى للأستاذ يا أم عـواطف. وظل فـمى مـفـتـوحـا من بقـايا الضـحكة السـابقـة، ذلك أننـى حين جلست على المقـعـد لم أكن أصـدق، أو أتصـور، أننى فى بيت قـاتل! قـاتل أجـيـر طبـقت شـهـرته آفـاق القـرى، ونحن أبناء القـرية المجاورة، كنا ننطق اسمه «عابد» فى الأوقات العصيبة والمناسبات الدموية، فما انطلقت رصاصة فى بدن، أو سكين فى جنب، أو حبل فى رقبة إلا وصاح أى واحد: عابد، فقـد كان هو المسئول عن كل الدم الذى يجرى فى قـرانا، وعندما تنغلق القبور على (لأمانات) وتبدأ فوهة الحكايات تتسع، كان عابد يحتلها وحده، مع أن كل هذه القرى أنجبت قتلة لكن أحدا لم يحظ بمثل ما

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حظى به عابد، الذى جاء اسمه لافحا مثل ريح النار فور دفن جثمان أبى بساعات قليلة.

لم أكن أصلح للثأر، ولا إخوتى كذلك، وكان من المستحيل أن نهيل التراب فوق رؤوسنا صراخا على أبينا المقتول من دون أن نأخذ بثأره، وعندما همس سمعان باسم عابد فى أذنى: اضطربت، واهتز جسدى كله، ولم استطع امتلاك نفسى، حتى يوم أن ركبت الحمار وراء سمعان لنخترق الأحراش وجسور الترع والقنوات، ظل عابد ضاغطا على أعصابى، وكنت خشيت مواجهة هذا النوع من التسلل إلى أوكار القتلة، وحاولت أن أترك الأمر لسمعان، لكنه رفض لأن الأمر يخصنى أنا، وأنا المسئول عنه وحدى ولا داعى لأن تأتى سيرة سمعان فى الموضوع بالمرة، لكنى فوجئت بأن لا تسلل فيه ولا تخفٍ، فنحن نسير فى قرية نقول لأهلها: السلام عليكم فيردون: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ونشير إلى أحدهم لنسأل عن عابد، فيرفع ذراعه مشيرا إلى الشارع المنحرف يمينا، تماما مثلما تسأل عن مدرسة أو مخبز أو مسجد أو مقهى أو عمدة. وقبل البيت بقليل أنزلنى سمعان وتركنى كى أنهى المسألة بمعرفتى، ولم أجد وكرا أو كهفا أو سردابا أو حصنا، وجدت بيتا مخلوع الباب، ما كدت أصل إلى عتبته حتى وجدته جالسا، كان يفتل حبلا أو يخيط قطعة قماش، (لا أذكر) وهأنذا جالس على مقعدى أراه وهو ينفض ملابسه وينادى أم عواطف من أجل الشاى، ثم وهو يغلق الراديو، ويعود فيؤكد بصوته

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

العالى على الشاى، وعلى الحائط الريفى أثر سواد وهباب فى موقع المصباح، وطبلية عليها بقايا خبز، وأكواب معتمة الجدران بسبب بقايا الشاى، وفى الركن كرة مطاطية وعجلة فى عصا مما يستخدمه الأطفال، وعلى الحائط صورة ليلى مراد وأنور وجدى، وصورة نصف ممزقة لأم كلثوم، وصور صغيرة مما يباع أمام دور السينما لإسماعيل ياسين، وأحمد مظهر فى «الناصر صلاح الدين» وصورة لمحمد عبد الوهاب مع أم كلثوم فى «لقاء السحاب». ولوحة عريضة مكتوب عليها: «الحمد لله» بالخط الثلث الأسود العريض، وملابس معلقة فى مسمار، وعلى الأرض حصيرة مطوية بجوارها فردة حذاء.

وصل الشاى مع امرأة لم أرها لأنها مدت ذراعها بالبراد من الباب الداخلى أولا ثم بكوبين واحد وراء الثانى، تناولها عابد وهو يشكر أم عواطف، فكان فى ذهنى أن أسأل عن عواطف لابد أنها ابنته، وكم له من عيال، فجلس أمامى على الأرض وصب الشاى فى الكوب الذى ظل أثر التراب فى قاعه من الخارج، وصاح قبل أن يصب لنفسه كوب الشاى: أمال عواطف فين؟ آه بنت الكلب، كان يسب ابنته وهو يضحك ليصفها بأنها عفريتة، مجرد أن تحضر من المدرسة تجرى لتلعب عند بنات أختها، لأن أختها ـ وهو يصب الشاى ـ بيتها قريب، ثم رفع رأسه وهو يمصمص فى كوب الشاى وقال بعيون جذابة:

ـ تحت أمرك!!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كنت قررت أن أنسى الموضوع الذى جئت إليه من أجله، لكن ـ تحت أمرك ـ أعادت الموضوع الدامى إلى موقعه، فها أنا أجلس فى عقر دار قاتل أجير ومشهور، من دون أن أجد أثرا لما يحمسنى أن أتفق معه، مرة ثانية قال بشكل حاد:

ـ تحت أمرك..

أخرجت علبة سجائرى وقدمت له واحدة، فرفض لأنه لا يدخن، إذن فأنت تدخن المعسل، خلع طاقيته ونفضها بين يديه ثم وضعها على رأسه مرة أخرى:

ـ رجل أم امرأة؟

قلت فى أسى: رجل. عمى.

عمك؟ وضحك بصوت مجلجل. تصدق بالله هذا ثالث عم فى الشهرين الأخيرين.

وبدأ يسألنى عن عمر عمى وعدد أولاده، وأين يصلى الفجر، وأين يصلى العصر، وأين يجلس آخر النهار، لم يسألنى عن سبب طلبى أن يقتل عمى، بل وما أكاد أنحرف لأحكى السبب حتى يقاطعنى باستفسارات عن عادات عمى فى الحقل وفى البيت، وهالنى أنه يعرف تضاريس قريتى، بل ويعرف بيوتنا والتواءات حاراتنا، وكان يمصمص بقايا الشاى ويعيد الكوب إلى الأرض، حينما همس إن كانت العملية مستعجلة أو يأخذ راحته فيها، ثم قال:

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

- على فكرة لى باقى حساب عند عمك آه تذكرته الآن، يمكن من ثلاثين أو أربعين سنين.

نظرت فى وجهه، وفى جسده، أحسست أنه يقاوم أفكارى عنه، بدأ يحكى لى عن خدمة سابقة قام بها لعمى، والتى انتهت بقتل رجل فى السوق أو فى الطاحون، فهو لا يتذكر، المهم هناك ناس كثيرون لايدفعون الباقى.

قلت - كى أرد اتهاما لم يعلن - إننى سوف أدفع المقدم والمؤجل، وأقسمت له بالله العظيم ثلاث مرات، ظل ينظر فى وجهى ثم خبط ركبتى بكف يده وصاح: يا راجل اللى عند الطيبين ما يروحش، ثم صاح:

- اعملى لنا شاى تانى يا عواطف.

وتحرك إلى الخلف حتى استند ظهره إلى الحائط، وعبث بأصبعه فى أسنانه ثم قال: بلاش الشاى، اعملى لنا لقمة يا أم عواطف، فوقفت لأمنعه من هذا الكرم، حتى جلست على الأرض، فأمسك بيدى فى ود شديد وقال: الحمد لله، فقلت: الحمد لله، وأرخيت ظهرى مستندا إلى الحائط، فقال وهو ينظر فى أصابعه: ألفان، ورفع نظره إلى عينى. أشعلت سيجارة وظل هو يعبث بأصابعه، ثم أردف:

ألفان: ألف مقدم وألف بعد التنفيذ، والله العظيم لولا أننى أحببتك ما كنت أتنازل عن ثلاثة، المهم لن يبقى إلا الكلمة الطيبة.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ثم صاح موجها وجهه نحو الباب الداخلى:

ـ شدى حيلك يا أم عواطف!!

وجاء صوتها من الداخل: حاضر..

ولم أعـتــرض، وظللت أمــعن وأقلب النظر فى الشمس والظل والجدران.

❖ ❖ ❖ ❖

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

احتفالية
ذات الوجه الجميل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ذات الوجه الجميل تستيقظ مبكرة فى هذا الصباح:

وأول ما فعلته مدّت أناملها وتحسست الراديو حتى عثرت على المفتاح، انهمرت أغنية غير واضحة ملفوفة فى موسيقى ضاجّة، خفضت من صوت الراديو حتى بدأت الموسيقى تنفصل عن تأوه أنثى تزحف خلف ذكريات كليلة، تثاءبت مرة أو مرتين ثم أنصتت فأيقنت أن الفجر على الأبواب، أرادت أن تعود للنوم لكن تيارا غامضا تسرّب فى شرايينها، وبدأت سخونة ناعمة تنشب أظافرها فى كيانها، ألقت الفراش جانبا وتحركت واقفة، حتى المصباح الذى تعودت ألا تضيئه: أضاء، وأحسست بمتعة حية تهز بدنها، وانتبهت إلى المرآة فأراحها أن ترى وجهها، هذا الوجه الجميل المدسوس فى الشعر المضطرب، أمعنت فى المرآة أكثر فأحسست بنشاط أكثر، ورفعت الشعر من حول الوجه فظهر جمالها أشد بريقا ووضوحا، فتحت باب حجرتها وأنصتت قليلا، العريس الأول كان قويا شرسا وجميلا، تتمناه كل البنات وعندما تغنت أسرتها باسمه دهمتها رغبة عارمة أن ترفضه، رفضته بصوت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عال داخل جماعة تعودت ألا تتيح لبناتها أن ترفض أو أن تقبل، كان شعرها قد تلبّد تحت سطوة الإهمال، وحواجبها فقدت دقة تقوسها، وأثر لاكتناز كسول تضخم حول رقبتها وأسفل خدودها، وكان الصمت جليلا رغم كثرة الراقدين على الأرائك - وعلى الأرض أيضا.

وتضع رأسها تحت الصنبور:

وعندما اندفع الماء البارد مخترقا أحراش الشعر انتفض الجسد كله، استمرت فى الارتجاف البارد رغبة فى السفر، أى سفر؟؟ لم تفكر فى ذلك من قبل، رغم كثرة المسافرين المخترقين للبيت، جنود وضيوف ومعارين ومتخرجين وباحثين عن لقمة العيش، وكان العريس الثانى ضابطا ناعما هادئا تتمناه كل البنات، وقرابتهما تبيح لهما أن يتجالسا، وحين تجالسا لاحظت أن عيناه ضيقتان يتراقص فيهما خرز مضطرب، كان يمعن فيها كثيرا فتحس بأن عيونه المتوترة لا تدعو للاطمئنان، صارحته بأمر عيونه فظل صامتا فترة، ثم وقف ممعنا فيها وقد اتسعت عيونه حتى كادت تلتهم باقى رأسه، فأحست برغبة أن يندفع ماء الصنبور البارد لباقى جسدها.

❖ ماء الدش يثير المسائل أكثر:

الذكريات المثارة بماء الدش أكثر وهجا، ذات مرة اقتحم أحد أقاربها بيتهم، لم يكن فى وعيه لكن الناس

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

لم ينتبهوا، دخل ملتاثا حتى واجهها، أحست بالقشعريرة لكنها لم تلبث أن استراحت لتدفق الماء، وكان وجهه يقطر عرقا، ظل ناظرا إليها دون أن ينبس، وظلت هى ممعنة فى الوجه المتوتر، كانت عيونهما قد التمعت وأثارت زغللة وارتباكا جميلا، لم يلبث أن استدار وخرج من بيتهم ولا يزال فاقدا الوعى، وفى اليوم التالى جاء ليخطبها، رفض الجميع لألف سبب، لكنها وافقت دون سبب، وبدأ الماء يتسلل لأجزاء وثنايا جسدها، من زمن لم تغتسل هذا الاغتسال الكاسح، وفتحت نافذة الحمام التى نادرا ما يفتحها أحد، ولم تهتم بالغبار الذى ملأ الحمام، ولا بما يوجبه فتح هذه النافذة من مراعاة عيون الجيران، وكان الماء الدافق لا يزال يبحث عن ثنايا فى جسدها العطشان.

❖ لماذا الحنّاء الآن؟

عندما خرجت كان الجميع لا يزالون نائمين، أغلقت السماء أبواب الحظ فطارت تغنى مللا، كل ربيباتها ـ حتى العجفاوات ـ لهن رجال (بعضهن أهلكن أكثر من رجل) وأبناء وشهداء وعرائس، هذا تفكير الكفرة والخارجين عن طواعية العزيز الحكيم، الحنون، أين الحناء؟ ولماذا الحناء؟ من زمن لم تر كفا مصبوغة بالحناء، ارتدت قميصا ساترا وبدأت تعبث فى مكامن الحناء. وجدت حُق ـ أو علبة ـ الحناء خاليا، كان جسدها قد تهلل عند ذكر الحناء، ارتدت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ملابس تصلح للخروج، كانت سعيدة، وكانت جزلة، نزلت الدرج دون أن تأبه لمن يناديها، وخرجت دون أن تهتم بأن الصباح لا يزال مبكرا، وهل يفتح العطار أبواب دكانه الآن؟ ومع ذلك وجدته جالسا أمام محله المتوارب، كان ينظر إليها بعيون نافذة، في صوت طفولى طلبت بعض الحناء، تناول كيسا من داخل الدكان دون أن يدخل الدكان، مجرد ذراع طويلة امتدت وتناولت، قال لها البائع: خذى المسك، ولماذا المسك؟ قال لها البائع: أنت حرة، فأخذت بعض المسك، ثم طلبت زجاجة عطر، فتناولها الرجل دون أن يقوم ودون أن يدخل الدكان، كانت فى قمة جمالها.

◆ ذات الوجه الجميل تتجمل أكثر:

عندما عادت إلى حجرتها أحست بأن العالم كله يزغرد لها، رؤوس رجال وألسنة نساء وبيارق وشارات، عجنت الحناء ووضعت العجينة حول أقدامها وبين يديها، انتبهت إلى أن التطيب بالمسك والعطر يفرض عليها أن تكون كفوفها وأصابعها حرة، راقها اختلاط المسك بالعطر بالحناء فكادت تغسل بالخليط كل جسدها، انتعشت الحجرة بالرائحة النفاذة فكادت ذات الوجه الجميل ترقص، فركت يديها من الحناء ثم عادت فوضعتهما فى عجينة جديدة، ظلت الطيور تخترق الحجرة وكأنها تخلو من السقف، وخرجت النجوم من مداراتها وبدأت تتلصص من فوق الحوائط، وكان الجسد قد امتص كل الروائح فاندفع

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

متفاعلا مع الوجود، وكان العمر قد تناثر فى الأجواء العليا روائح تصدح بالموسيقى، وأحست أن الأوار داخلها يود أن يتعانق مع دفء الجنة. وكانت أيديها وأقدامها لا تزال مربوطة بلفائف الحناء، قلبت أكوام الملابس التى لم تستعملها من زمن، وأخرجت الفستان الأبيض الذى تنعكس على خلاياه أضواء العالم، ارتدته فى حبور وصوتها قد بدأ يعلو شاديا، دارت به دورتين.

بعدها تحركت ذات الوجه الجميل إلى فراشها، حيث تمددت ساحبة آخر نغمات صوتها، تاركة الروائح الطيبة تملأ المكان، ثم بدأت أنفاسها تخفت وتتلاشى، والملائكة تسبل جفونها وتغلق عيونها، وتربت فى حنان على جسدها الذى ظل دافئا ـ وجميلا ـ ومبتسما، ثم لم تلبث الملائكة أن خلعت عنها أرديتها، وأراحتها، وبدأت تضاجعها.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الذراعان

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كانت ذراعا زوجتى جميلتين. تنتهيان بتلك الأنامل الرقيقة المهذبة المشذبة. وبين هذه الأنامل كنت أضع الجنيهات القليلة التى تمنحها لى الحكومة بصفتى واحدا من شباب موظفيها.

كانت ذراعا زوجتى أجمل ذراعين فى العالم، وأكثر حنوا من أى ذراعين أخريين!!

تبدأ الذراع من الأظافر المشذبة، إلى كف اليد الطرية، إلى المعصم الخالى من العظم الذى يشف كالبللور، ثم الساعد الأبيض النقى الخالى من أى أثر لنمش أو بقع.

ذراعان جميلتان..

غير أن الأمور لا تسير كما نهوى، فقد وقعت مشادة بينى وبين الحكومة، الحكومة ترفع الأسعار، وجنيهاتها تظل تتقلص حتى لا تكاد - تظهر عند وضعها بين يدى زوجتى..

وانتهى الأمر بأن طلبت منى الحكومة - فى هدوء وثلاثة تحقيقات - أن أفارقها، لعدم انضباط وانضباط احتياجاتى مع جنيهاتها الهزيلة، فأهتز ذراعا زوجتى،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وأصابتهما الصفرة، الاهتزاز والضمور، فكدت أرتعب خوفا من الحياة المقبلة!!

❖ ❖ ❖ ❖

نصحنى صديق بأن أتاجر فى «النخالة» ونصحنى صديق بأن أتاجر فى جلود البهائم، ونصحنى صديق بأن أتاجر فى العسل الأسود، وفى النهاية طلب منى صديق أن أكتب مسلسلا تليفزيونيا، فنفذت جميع نصائح الأصدقاء، وباركنى الله فأصبحت أحسن تاجر نخالة وجلود وعسل أسود ومؤلف مسلسلات تليفزيونية.. فكادت زوجتى تطير فرحا..

كنت منهمكا فى إثبات وجهة نظرى الخاصة بأن الحكومة ليست أبا رؤوما، بل هى شريك قعيد ينقصه الذكاء، وركنت السيارة أمام المنزل، وصعدت السلم إلى شقتى، فراعنى أننى أحدق ببطء، وألهث، وأن جسمى أصابه إرهاق، وتميل.. فشعرت بالحزن، لكن كل شىء له دائما وجهه الآخر، ليس وجهه على «وجه التحديد» بل ذراعاه.

وشعرت بشوق إلى ذراعى زوجتى الجميلة.. سلواى ومرفأى الأمين..

❖ ❖ ❖ ❖

فى المليون مرة السابقة كانت زوجتى تفتح الباب فلا أنتبه إلى جمالها، إلا بعد أن أستقر فى مقعدى الأثير المواجه للتليفزيون الملون..

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ولم أكن خلال سنوات اللهاث، أى سنوات القطيعة بينى وبين الحكومة، قد فكرت فى ذراعى زوجتى كما فكرت فيهما اليوم..

وعندما فتحت الباب أمسكت بيد زوجتى فارتبكت زوجتى ارتباكة ساخنة ذكرتنى بتلك الأيام الخوالى السابقة على عصور العسل الأسود والمسلسلات..

غير أن المنطقة الممتدة ما بين اليدين والكوع كانت مشغولة.. مملوءة بهذه الأساور المعدنية الصفراء المتتالية فيعكس على دوائرها الضوء..

كان الذهب يحاصر الذراعين، منجم من التبر يحاصر المعصم والساعد حتى الكوع، ووسط هذه الأساور ذات الحلقات، لابد أن تقيم ذراعا زوجتى..

❖ ❖ ❖ ❖

قلت فى حنو غاضب ويد زوجتى تقدم لى كوبا من عصير فاكهة لا أذكر اسمها:

- يا حبيبى يكفى أسورة واحدة فى المعصم، حرام أن..

لكن زوجتى سحبت كوب العصير جانبا وبدأت تعبث فى أساورها:

لماذا أسورة واحدة؟ هل أنا أقل من .. ومن.. ومن..

وعددت أسماء زوجات - ونساء بلا أزواج - تظهر أسماء بعضهم فى الصحف أحيانا .. «ومقترنة ببعض القضايا أيضا».

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قلت: البساطة .. يا حبيبتى.. وكانت كلمة «حبيبتى» فى هذه اللحظة باردة كملمس المعادن، فرجوتها أن تمنحنى كوب العصير الذى لا أذكر اسم فاكهته!!

ردت زوجتى بصوت معدنى أكثر نقاء: وأنت؟ لماذا ترتدى البدلة فى عز الصيف، وتضع دبوسا فى صدرك يشع النور فى رباط عنقك؟ ولماذا ترتدى .. ولماذا؟

همست فى غضب كى أمنعها من الاستمرار: أنا أقابل ذوى الحيثية، فهل أقابلهم بالقميص والبنطلون بدعوى البساطة؟

قالت زوجتى وهى تستدير تاركة منطقة جلوسى: وأنا زوجة الذى يقابل ذوى الحيثية.. وتحركت زوجتى متبرمة بكلامى، فهزت ذراعيها، فأشاعتا فى الجو رنينا «شيطانيا» أصفر .. بلعت ريقى..

ونظرت إلى ساعتى الذهبية، فوجدت أنها غير منضبطة، وكانت ساعة الحائط أكثر انضباطا..

وبدأت أتثاءب راغبا فى النوم وأحسست أن النوم هو الآخر بدا أصفر شاحبا،، يتلوى حول عنقى كالذراعين.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ليلة الهناء الأخيرة

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

- وبعد الاثنين ؟؟

- الثلاثاء..

- حسنا هل يمكن لك أن تعد من واحد لغاية عشرة؟؟

❖ ❖ ❖ ❖

كلما ضغطت على بطن كف عروستى - حبيبة ضحكت، كانت جزلة وكنت سعيدا، هاص الأصدقاء، وأنزلونا فى ود صاخب أمام الفندق، تأبطت حبيبتى ودست على سمانة ذراعها فقرصتنى، نزلاء الفندق والعمال فرشوا لنا الدنيا ابتسامات وزغاريد، رش مجهولون الملح والحلويات على رءوسنا، موكب صغير قادنا إلى السلالم، تمنى لنا الجميع السعادة.

❖ ❖ ❖ ❖

- ولماذا لم تكمل دراستك؟

- ولماذا أكمل دراستى؟

الهدوء الحق واجهنا عندما أغلقنا باب حجرتنا خلفنا، لففت ذراعى حول حبيبتى واحتضنتها -

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وخطونا داخل الغرفة معا، لثمتها تهاديت بها حتى أجلستها فى مقعد، توتر كالتنميل ينفجر ـ رقيقا ـ فى حبيبات الكيان، خلعت جاكتتى متخلصا من وخزات ساخنة تحت إبطى، صببت كأسين من نبيذ صقلى وناولت عروستى إحداهما، عيناها تشعان ألوانا، درت حولها راقصا دورتين ثم تناولت من بين أناملها الكأس، ونحيتها جانبا.

❖ ❖ ❖ ❖

ـ ومن الذى قتل أباك؟

ـ لا أدرى، أعرف فقط أنهم وجدوه فى قاع ساقية مجذوذ الرأس مبتور الأطراف.

قلت لحبيبتى إن أعوامنا المباركة يجب أن تبدأ بشىء مختلف، فتحت حبيبتى عينيها منتظرة ما قد أنطق به قلت وأنا أهمس: ألا نستطيع أن نصلى ركعتين لله؟؟ طرفت برموشها حابسة ابتسامتها الوديعة فازدادت رونقا، مددت كفى إلى رأسها ماسحا عنها إجفالها، لم تلبث أن ضحكت محتجة، قلت لها ممنطقا الأمور: فى النهاية فإن الله هو أبونا وأمنا وأخونا وأهلنا، أعجبتها النغمة ودرجة الهمس فضحكت، تبينت عروستى أنى جاد فاستسلمت، رفعت عينيها فى وجهى، لم تعلق، ظللت برهة أقاوم اندهاشتها الرائعة المثبتة فى جسدى الفارع.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ـ قيل إنك ـ كنت ـ على علاقة بإحدى قريباتك؟

ـ كنت أود أن أتزوجها، غير أن تاجر دواجن اقتحم علاقتنا وقص ريشى وأوقفنى وحيدا فى ركن بارد.

❖ ❖ ❖ ❖

بدأت أخلع ملابسى وأرتدى منامتى الفاخرة الجديدة، ساعدت عروستى فى التخلص من أرديتها البيضاء المعطرة المزركشة، اتجهت ـ بعد ذلك ـ إلى دورة المياه وتحركت عروستى خلفى، كانت (ترتيبات الوضوء) غائبة عن ذهنى فحاولت استرجاعها من ذكريات حصص الدين القديمة فى بدايات المدرسة، قصصت لعروستى حكاية جليلة بنت مرة، ثم حكاية ترقيتى وعزلى من العمل، ثم إعادتى للعمل وترقيتى، وإعفائى من العمل، ثم نقلى لمكان آخر، وترقيتى وإعفائى من العمل، وقلت لها إنه من السهل جدا أن تصدر صيغة الترقية والعزل والتأنيب فى قرار واحد، ظلت عروستى تضحك، لم تكن قد جربت أن تمد ذراعها ـ فى المحيط الهادر القلق ـ علها تجد قشة تتعلق بها وتنقذها فتأتى إليها باخرة ضخمة تجتاحها وتغرقها، ارتبكت عروستى وصمتت فاضطررت أن أحكى حكاية ألفتها لحظتئذ عن ملك تزوج أمه، غمرنا صمت أكثر حدة فاستعنت بالله أن يساعدنى فى معرفة أسس ترتيبات الوضوء، ظل الصمت حرجا ـ حادا جرفنا الحماس لتصحيح عمليات الوضوء، كنا نشع سعادة ورقة وحبورا، الله أكبر الله أكبر، وبسم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الله الرحمن الرحيم، اللهم امنحنا الفلاح والتقوى والقوة وساعدنا، نحن أيتامك يا رب، ذات مرة كنت راغبا فى معاشرة واحدة فى قريتنا، راودتها كثيرا لكنها تأبت، كانت جميلة، ودسمة وفائرة ومشتهاة، وكنت متأكدا أن ذراعين لمجهول - لابد - قدعصرتاها، وذات خميس شبت النار فى بيوت مجاورة، وعندما كان الأهل يهرعون مرعوبين صارخين قافزين على الحوائط والأسطح وبأيديهم الحلل والأوانى: استطعت أن أزنق البنت فى ركن منزو عاركا جسدها الفائر بين أحضانى.

❖ ❖ ❖ ❖

- كم أذنا للحمار؟

- اثنتان ..

- وللبقرة؟

❖ ❖ ❖ ❖

اللهم اقبل صلاتنا وبارك حياتنا واشملنا بالرحمة والغفران، واحفظنا من عوادى الزمن، تبين لى - أو هيئ لى - أن اتجاهنا للقبلة ليس مضبوطا، انحرفت يسارا وحاذتنى عروسى، لكن الكأسين الممتلئين - أصبحتا - مباشرة أمامنا، أعوذ بالله، هرعت إلى الكئوس والزجاجة ونحيتها جانبا وعدت إلى الصف، يتكون الإنسان من خمس حواس وأربع مميزات وثلاث أعاجيب وتجربتين وحزن واحد، أما الحواس الخمس

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فمعروفة، أما المميزات الأربع: فأنثاه تحيض وكفه نجسة ولسانه أعمى وقلبه مريض، أما الأعاجيب الثلاث فقد غابت عن ذهنى، وأما التجربتان فهما الميلاد والموت، وأما حزنه الوحيد فلأنه يعرف كل ذلك.

❖ ❖ ❖ ❖

في التقرير الرابع عنك أن المؤسسة قد أتاحت لك فرصة تلقى دروس فى التخطيط وإعداد البرامج والاختزال والترجمة الفورية، وأن إحدى الجهات الرسمية قررت..

ـ أرجوك لا تكمل.. دعنى أتكلم..

❖ ❖ ❖ ❖

فرصة الخلاص الحقيقية التى يمكن للإنسان أن يقتنصها: أن يستعين بالله فى وقت لا يتوقع منه الرب ذلك. فتحت قلبى وأفرغته من همومه ونظفته جيدا ووضعته أمام الله، بعد (الفاتحة) مباشرة أحسست بانزعاج يجتاحنى، هأنذا أمامك يا رب، طيب هادئ جاد، لكنى سئمت ـ كما لا بد أن تعلم ـ المطاردة، كما سئمت كل الصور التى تعكسها لنا المرايا، ها نحن نقف تحت رحمتك مباشرة، نبتهل إليك أن تعمر قلوبنا، سيصلك دعاؤنا حتى ولو ناجيناك به من غرفة معطرة مجهزة أصلا للاشتعال واللذة، هرعت إلى (الصمدية) ملطفا بها جوفى، فى الخريف الماضى ذهبوا لإيقاظ صديق لنا فوجدوه قد قضى نحبه

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بسبب تمزيق عنيف لرقبته، ومنذ شهور فوجئ أقارب بأبيهم يعود على محفة استئصلت كل أجهزته الحساسة، كما قامر صديق آخر مراهنا على زوجته - وخسرها، لكن الكسبان ضحك فى سخرية ورفض تسلمها، ولا يزال إمام المسجد يرتب - فى حديث العشاء.

عدد الإناث اللاتى سوف يضاجعهن - يوميا - فى الجنة، انحنيت ساجدا لكن الانزعاج بدأ يتكتل حجارة فى صدرى، ألم نشرح لك صدرك؟ هذا حقيقى، لكن المطلوب أن ينشرح صدر الآخرين أيضا، تجرعت مع ممثلة نصف مشهورة كئوس العشق والهناءة لكنها أبدت رغبتها فى تغييرى، قلت لها إن ذلك يسير فى غير ما اتفقنا عليه، فقالت: دعنى أبحث عن مصلحتى، وعندما ألححت عليها فى استمرار علاقتنا: وضعت بينى وبينها حاكم المدينة الذى تفضل وأوصى بنقلى إلى جيب مهمل فى منطقة صحراوية لا يصلح فيها الاختزال أو التخطيط أو الترجمة الفورية، سجدت وكبرت عروستى معى، طلبت من الله - مخلصا - أن يحرسنا، أن ينتبه إلينا جيدا، فنادرا ما يجد الله من عباده من قام بمثل ما نقوم به، إن ذنوبنا يا رب صغيرة، حصوات صغيرة، وأنت تعلم أن ذنوب غيرنا جبال، وكانت النوافذ مفتوحة، والجو رائقا، والنيل - من بعيد - منكسرا خاشعا.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ـ كيف تعرفت على عروسك؟

ـ الحالية؟

ـ نعم الحالية..

ـ كانت تأتى لزيارة أبيها فى المعتقل، كانت تمكث فى الانتظار ثلاث ساعات لترى أباها عشر دقائق. وبعد الإفراج عن أبيها، جاء الرجل لزيارتى فى المعتقل مرة فقررت أن أتزوج ابنته.

❖ ❖ ❖ ❖

التحيات لله والصلوات والطيبات، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم. الستائر الأرجوانية تتسال مرفرفة حول مصاريع النوافذ، كانت أمى تكره الستائر، وأنا أيضا، وكان أخى الأكبر لا يهتم بذلك. كان فجا شرسا قويا جاهلا يهوى صيد الطيور ومداعبة بنات القرية وتعذيب بعض الفقراء، ثم وقع فى هوى غجرية، ولما عارضته الأسرة: تزوج الغجرية واقتحم بها منزل الأسرة، وطلب من أمى أن تستقبل عروسته، فلما عارضته أمى أمرها أن تلثم قدم عروسه، وكان أعمامى وأخوالى يصرخون ويسبون ويقسمون بأنهم سوف يقتلونه ويقتلونها، ولثمت أمى قدم عروس أخى الغجرية، ثم أصيبت بالشلل، ومات أعمامى وأخوالى واحدا تلو الآخر، لكن أخى لا يزال حتى اليوم، فجا شرسا قويا جاهلا، يهوى صيد الطيور ومداعبة بنات

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

القرية، وتعذيب بغض ضعاف الفقراء، فى العالمين إنك حميد مجيد، السلام عليكم، السلام عليكم، قمت إلى عروستى فاحتضنتها وأرقت أنفاسى فى عطر شعرها، جسدى مرهق لكن أمورى نشطة، قصصت لها جزءا من حكاية فنان أسبانى عشق الكونتيسة، وربع حكاية عن جحا وكلبه. فاضطرت عروستى أن تقص حادثة القرد الذى هرب من جبلاية القرود فى حديقة الحيوانات، وقفز إلى الشارع فجرا، وتسلق النوافذ والشرفات حتى هاج الناس فزعا، ثم أطلقت الشرطة عليه الرصاص، نبهتها أن القرد انتحر بالقفز من الدور الخامس، نظرت عروستى فى وجهى، وسكنت.

❖ ❖ ❖ ❖

- كم أخا لك؟

- تسعة

- وكم مرة تزوج أبوك؟

❖ ❖ ❖ ❖

المتعة الكبرى أن تمهد للمتعة الكبرى، الصدق كالحصان كلما كان قويا كان جامحا، احتسيت كأسا فى رشفة واحدة ولثمت حبيبتى، وخلعت عنها آخر أرديتها، وحملتها إلى فراشنا، غاب الليل وراء الستارة الهفهافة، كانت حبيبتى جميلة، عابثتها واحتسيت كأسا أخرى، قلت لها إننى لم أكن أتصور أنه يمكن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

للإنسان أن يحب ويتزوج ممن يحب فى النهاية، صمتت قليلا وقالت إننى أستحق كل خير، قلت لها إننى أنظر من النافذة فأكاد أحس أن الشارع متورم متضخم بالغجر والسعاة والحفاة والسواقى المهجورة والأعضاء الممزقة والقرود وتجار الدواجن والبنادق والهمس والترجمة الفورية، طلبت عروستى منى - مستكينة فى صدرى - أن أتوقف عن احتساء النبيذ، جسدها ناعم رقيق مشتعل مشحون، لثمتها فى عنقها وفى سلسلة ظهرها ثم فى وجنتيها، ضحكت عروستى وقفزت من الفراش، واحتمت - جميلة متوهجة - بقطع الأثاث، فقفزت - أنا - خلفها - وتشبثت بها واحتضنتها وضغطت عليها، صرخت حبيبتى مشدوهة ثم ألقت بنفسها فوق الفراش لاهثة متوردة، كان السقف مزخرفا بأوراق أشجار وتنسيقات زهور، صعودا وهبوطا، سكونا وحركة، اسمع الأوامر يا حيوان ونفذها، انزل، اطلع، اسكت، قف، اكتب، اصمت، إجازة مفتوحة حتى نحتاج إليك، من حقنا أن نحمى أنفسنا فما الذى يضيرك أن تمكث فترة فى البيت، كل يوم نعيد ترتيب جزيئات العقل والإحساس لاستقبال الأشياء المفزعة الجديدة. حتى الملابس تبلى من سوء التخزين، طوقت حبيبتى بذراعين من الصلب وظللت ضاغطا عليها بين أحضانى.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ـ كم عمرك؟

ـ تاريخ ميلادى فى أول الأوراق

ـ لا، قل لى أنت كم عمرك؟

❖ ❖ ❖ ❖

احتويت حبيبتى ولثمتها فى بطنها فى رقبتها ألقيت بها على الفراش وتحسست بأسنانى رقبتها، ناعمة دافئة ضاحكة، حروف المتعة المنسابة.

دغدغت رغبتى فى أن أظل ضاغطا، بعدها: انغرزت أنيابى فى زورها، وصرخت حبيبتى فظللت ضاغطا، فرْفَط جسدها الفائر المتألم فى الهواء ثم انخبط على الفراش، خلعت أنيابى بعنف من الرقبة الهائجة الدافئة الصارخة وغرزتها فى صدرها، مزقت الثديين بسرعة مذهلة، ثم عدت إلى رقبتها مرة أخرى، انزلقت رأسى على بطنها، فأحسست بتيار من الموسيقى المرتاحة تسرى فى عروقى، وغمرتنى راحة قصوى لم أجربها منذ مليون عام، رفعت رأسى عن بطنها واحتويت كل جسدها بين أحضانى، والدم يغرقنا ويسيل منهمرا، ثم لم ألبث أن أخليتها من كل تشبث وألقيت نفسى بجوارها، أراحنى أن تنفسها المتوتر الصارخ المتحشرج قد توقف، وأن جسمها سكت، وأن جمالها قد اكتساه الهدوء.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الزبد

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قالت زوجتى: إذا لم تحضر هذا الشهر فحتما ستهل علينا قبل العيد، قلت لزوجتى: ليس مهما، اشترى زبدا من غيرها، لكن زوجتى رفضت فالمرأة لها عندنا نقود، ومن المؤكد أنها ستحضر.

كمن أراها، بائعة الزبد، وقد افترشت المدخل بجسدها الضخم وعيونها الواسعة، ما تكاد ترانى حتى تقوم نشطة وقد دست يدها فى غطاء رأسها ومدتها إلى للمصافحة، ظاهرة الحياة متلعثمة السؤال، وأتفادى إناءها الواسع المعمم بالزبد وأخطو، ولا تزال بقايا سؤالها عن صحتى وطلب الستر لى تتناثر فى أعقابى.

وما كاد العيد يقترب حتى بدا أن زوجتى لم تطق صبر انتظار بائعة الزبد، عدت من جديد أطلب من زوجتى أن تتعامل مع غيرها، قالت أمى محتجة: الزبد يملأ الدنيا لكن زبد هذه المرأة فيه بركة، ضقت بزوجتى وأمى، ولجأت إلى حجرتى.

فى آخر النهار أعادت زوجتى الحديث عن بائعة الزبد، تحاشيت التعليق لأن الأمر فى النهاية لا يزيد عن الحصول على الزبد من أجل العيد، وهو ما لا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

شأن لى به، لكن أمى قالت فى هدوء: اكسب ثوابا (موجهة الحديث إلى) واذهب إليها، ابحث عنها، قد تكون مريضة، هل انقطعت الناس عن بعضها؟ وكانت زوجتى تفتعل الصمت دون تدخل حتى لا أقول لها ما أعجز عن قوله لأمى. الزرابى، أين الزرابى؟ قال الرجل: اخترق هذا الشارع لنهايته، ستجد أرضا فضاء، تجاوزها، ستجد الزرابى.

كنت مشغولا ببعض التعاسات التى تسببها الاحتكاكات المتوالية للزملاء، اخترقت الشارع حتى نهايته، وزواج ابنة أختى فى البلد، وكانت الأرض واسعة فلم أعرف من أين أبدأ اختراقها، وشجار أبناء عمى كل مع الآخر، همت فى الأرض الفضاء قافزا فوق الحفر وبرك الطين، والروث، وانهيار منزل خالتى، لا يزال الفضاء فضاء، لا أحد، وقريب هارب من الخدمة العسكرية، لابد لكل شىء نهاية، ظهر شخص بادى الاتزان والمهابة، أين زرابى بائعات اللبن؟ وقف قليلا ودار حول نفسه، ثم قال: هى تلك العمارات البعيدة هناك، شكرته وظللت أسعى، كانت العمارات عالية لكنها لم تظهر جيدا إلا بعد نصف ساعة.

ثلاث عمارات، ملونة، قلت فى نفسى: عقول النساء تفعل أكثر من ذلك، لماذا هذه المرأة، البلد مليئة بالزبد، اقتحمتنى صورة أمى وهى توعز لى حاسمة أن أكسب الثواب. رجل يقف يرتدى بالطو غليظا ويقرأ فى جريدة ألقيت عليه السلام، سألته عن الزرابى، سألنى عمن أقصد فى الزرابى، حكيت له

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحكاية من أولها، تراجع للخلف وصاح مناديا، أطلت امرأة - جميلة - من الشرفة، أمرها أن ترسل البنت الصغيرة، وعاد يقرأ فى الجريدة.

بعد دقائق جاءت طفلة لا يتجاوز عمرها الست سنوات، قريبة الشبه جدا من قارئ الجريدة، قال لها فى وضوح: الأستاذ عاوز ستك، (يقصد جدتها) سارت البنت أمامى، سألتها عن اسمها، سامية، وعن أبيها، فرج، وعن علاقتها ببائعة الزبد: جدتى، كنا قد وصلنا إلى مجموعة من عشش الصفيح تقف بينها جاموسات وأبقار، وكلاب، وقطط تتقافز، وتتسلل، ظللت ألف خلف الطفلة بين العشش، ثم أمام عشة قصيرة مفتوحة الباب وقفت البنت وصاحت منادية جدتها، سحبتنى الطفلة فأحنيت رأسى كى أستطيع الدخول.

جاء الصوت، صوتها، نفس الصوت الذى كان يفترش بالزبد صالتنا ويتعقبنى بطلب الستر.

أهلا وسهلا..

وجاء الجسد الضخم، والعيون الواسعة، واليد المدسوسة فى غطاء الرأس.

أهلا وسهلا خفنا عليك فجئنا نسأل..

فيكم الخير..

والحمد لله أنك بخير.

الحمد لله.

لك عندنا حساب.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

اعترضت المرأة، كانت أوانى الزبد الفارغة مسنودة على جدران العشة، كانت المرأة خجلى وهى تنبهنى أنه لا يوجد بين الخيرين حساب، إذن لماذا انقطعت عنا؟

رفعت المرأة غطاء رأسها ووضعته على مقعد صغير وطلبت منى الجلوس، قالت: مشغولة. انتظرت أن تكمل، أكملت المرأة فى صوت قوى، خمسة رجالة وكل واحد ربنا أعطاه، الصبح العيال والمدارس، والظهر الأكل والخضار، وآخر النهار... ولم تكمل، كان واضحا أنها تعيش بمفردها، ودخلت سامية الصغيرة أحضان المرأة فحملتها وقبلتها وأعادتها إلى الأرض، وصوت الأبقار والجواميس يتماوج فى جو المكان، كنت ما أزال منتظرا أن تكمل، فظلت المرأة صامتة.

لكنها انفجرت فى الضحك، عاوزين بيوت بنيت لهم بيوت، مش عاوزين العشش، قالوا اقعدى معانا، أقعد معاهم فين؟ واللى عاوزنى يجيى يقعد معايا هنا، أنا يا ابنى - أعطيهم كل شىء، حتى الولد الصغير الذى لا شارب له راح قعد فى شقة معاهم، وكل شهر أعطيه عشرين جنيها.

عند خروجى من عشة بائعة الزبد كانت العمارات تواجهنى، وعلى شرفاتها الملابس المزركشة الملونة.

وكانت بائعة الزبد شديدة السعادة والخجل لأنى سألت عنها.

وظلت تسير أمامى ضخمة وارفة..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الضاحك

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عندما رأيته قادما نحوى، أحسست بالحرج. كان يضحك، لم يكن يبتسم، بل يضحك، وأنا أقف فى المدخل أتلقى العزاء، أبعدت نظرى عنه فوجدت أقاربى جميعا ينظرون إليه، كان اقترب، وفتح ذراعيه واحتضننى، وهمس فى صوت واضح: البقية فى حياتكم. وكان لا يزال يضحك. ووقف بجانبى، ارتحت لأن وقوفه بجانبى سيمنعنى من رؤية وجهه الضاحك. سوف يقلل ذلك من الحرج، ويتيح لى فرصة استعادة توازنى كى أبدو فى الهيئة التى يتطلبها موقف المأتم، ولم أكن أدرك حين ذلك أن وقوفه بجانبى سيولد موقفا جديدا، لأن العادة ألا يقف فى مدخل السرادق إلا أقارب الرجل، وفى النادر المقربون جدا، والأصدقاء جدا، وكثيرا ما يلج ذوو النفوس الضعيفة والوصوليون إلى الوقوف فى مداخل سرادقات ذوى الشأن كى يكتسبوا شيئا من الوجاهة، لذا، يقوم أحد أقارب الراحل بتصرف حاسم عندما يقترب من مثل هؤلاء هامسا فى حزم، لو سمحت: اجلس انت كى ترتاح.

وفى العادة أيضا يحذبه - فى حسم أيضا - من

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ذراعيه ليجلسه على مقعد بعيدا عن مدخل المأتم. لذا نظرت فى وجوه الأقارب كى ألمس استعدادا من بعضهم ليقوم بالمهمة، وانهمكت دقائق فى استقبال قادمين، ثم فى وداع مغادرين، وعدنا إلى انتظار الوقوف أمام السرادق، هالنى أنه أعاد تغيير موقعه، وأصبح فى الناحية الأخرى من السرادق، مواجها لى، عيناه فى عينى، وكان لا يزال يضحك.

دهمتنى موجة غيظ كتمتها فى داخلى فى اضطراب، كان وجهه الضاحك مألوفا لى، حاولت أن أستجيب لنوع من الاسترخاء كى أفكر: إنه لا يعمل فى المؤسسة وليس جارا لى فى السكن، هل قابلته فى مطار أو محطة قطار، أو فى المحكمة أو فى مستشفى، فى أى مكان معروف أو عارض أو مجهول؟ فقد تعودت أن أذهب إلى مثل هذه الأماكن كسرا للملل أو لإمتاع النفس بالمشاهدة، ولا سيما فى المحاكم والمستشفيات، وكان الرجل مصمما على ألا تنفك ضحكته أو تزايل وجهه، ولو برهة، قلت فى نفسى: ربما هو قريب للراحل أو معروف منى، أو ربما هو أحد المصابين بملامح الوجه الضاحك، فقد قرأت أن ثمة إناسا لهم ملامح الأسود أو القرود، أو الجمال أو الحمير، فلماذا لا يكون ممن لهم ملامح ضاحكة، واستغرقتنى المسألة فرأيت أن أكون أكثر إيجابية وأن أستعين بأحد الأقارب كى يزيحه - أو يزيله - من الموقع، وفكرت أن أفعل أنا ذلك، وكان الرجل الضاحك لا يود أن يخلع عينيه الضاحكتين عن وجهى، لكننى لست مهيأ لهذا الأمر ولا مستعدا لأن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أتحمل ما قد يكون له من نتائج إن رفض أو تصلب، وأدى استغراقى فى ذلك أن جاء معزون فلم أنتبه إلى أيديهم الممدودة فى الوقت المناسب، وارتبكت أكثر، كما ازددت اضطرابا عندما كان بعض القادمين يولونه الاهتمام أكثر أثناء المصافحة. حينئذ لكزت من فى جانبى، لكزته فى لطف أولا، ثم فى شدة، وأشرت إليه بحركة خفيفة من الذراع أن يتوجه إليه، إلى الوجه الضاحك، كى يبدأ فى التصرف معه، وهالنى أن كثيرين بدأوا ينظرون إلينا، إلى وجهه الضاحك، ثم إلى شخصى، فأغرقنى الحرج فى تجمد وتحجر فانتظرت حتى انتهت جماعة من التحية عند المغادرة وملت إلى الذى يقف فى جوارى لأومئ إليه بما أريد، لكنه لم يستجب أو لم يفهم. أخرجت المنديل ومسحت العرق من وجهى ومن رقبتى فى الوقت الذى اقترب فيه منى اثنان من الجماعة الواقفة فى المواجهة، كانا شديدى العبوس فأيقنت أنهما سوف يستأذنان منى فى خلع ذى الوجه الضاحك من موقعه، وقف واحد عن يمينى، وواحد عن يسارى وفى حزم شبكا ذراعيهما حول ذراعى، وهمسا فى حسم:

لو سمحت اتفضل أنت استرح، وما كدت أسير بينهما خطوتين فى اتجاه عمق السرادق حتى جذبانى إلى الخارج وطلبا منى أن أغادر المكان شاكرين، وكان الوجه الضاحك قد ازداد انفراجا ضاحكا.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ورق الجوافة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

برصت الشمس وارتعشت وبدأت البقع البيضاء تتناثر على سحنة الكون، اهتزت كل أوراق الأشجار واندفعت طارفة عين الدنيا، قالت امرأة أنجبت أربعة توائم: منقوع ورق الجوافة، وفى المساء سكنت الريح، فقالت امرأة لم تنجب: مسحوق ورق الجوافة، وفى الليل ماءت قطة ودهم البرد الأجساد فقالت امرأة تحفظ المواويل: يا راجعا من يافا- ناولنى ورق الـ ، فانهار جدار وانشرخ باب.

❖ ❖ ❖ ❖

ظلوا يكحون، ينقبض الصدر وينفرج، قليل من الحزن يهد الجبل، يكحون، يتقلص الصدر، حتى تكاد تنقطع الأنفاس، يكحون، حملت المرأة صغيرها واخترقت الدروب، كان الجو باردا والليل أعمى، داست حصا وشوكا وكلبا، قال لها الرجل وهو يربت فوق الصدر المشروخ: ورق الجوافة، ماذا؟ ورق الجوافة، وعادت المرأة تحتضن صغيرها، فاهتزت أوراق كل الشجرة، وظل الليل أعمى..

نبق وتوت وجميز ونخيل وتين وأشواك وسعف، أين ورق الجوافة؟ قال خفير لحديقة أثرياء: ويوجد أيضا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ورق مانجو، ورمان. وقال لص مرموق يعرف كل أركان البلد : سنط، وأعناب، وكح الصغير انشرح فؤاد الأم فقالت امرأة تتاجر فى الأخشاب: لم أر ورقة لأى أشجار فى حياتى. وقال نجار سواقى: ورق الزيتون أفضل، وقال كاتب شكاوى ورق جرائد أفضل، وقال شيخ مسن: أى ورق عدا ورق الكافور، وربت فوق صدر الصغير فدمعت عين الأم.

❖ ❖ ❖ ❖

عاد الصفاء إلى الشمس فاستدار القرص، وغطت الزرقة الشفافة سحنة المساء، ظلت الأشجار الشمخة تداعب النسيم وتسقط الأوراق فى الماء وظلت المرأة جالسة على عتبة بابها ترمق الأفق، وكان صغيرها فى حجرها ساكنا، ولم يكن يكح، وكان فاقد الحرارة أيضا..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بثينة .. بثيناه..!!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

انزلق الأتوبيس فى مدخل الكوبرى، مع تصاعد ضجيج آلات التنبيه من كافة أنواع السيارات، حاولت وقف حاسة السمع عن العمل، رفعت عيونى إلى السماء، تركت نظرى يسقط على صفحة مياه النهر، كدت أغرق، لكنى عدت أهيم فى السماء. لعن الذى كان خلفى الشارع والسائق والوزير. ولعن الذي كان أمامى، الوزير والسائق والشارع، فعاد نظرى يتلاعب مع الأمواج البعيدة التى تشاغب ضوء الشمس المتكسر، حينئذ، ومن بين الشفافية غير الرائقة للزجاج، رأيتها. هى نفسها.

كانت تسير كما كانت تسير معى فى الشارع وفى المنام، وفى أحلام اليقظة. كانت تسير، وتسير بمفردها، الحقيقة مشدودة إلى الكتف، فوق الذراع الجميلة، المعصم يلتف على حزام الحقيبة التى صنعت تماوجا مع الخطوط الطويلة للفستان الجميل.

صرخت بينما كانت السيارة فى مدخل الجسر والذى يجلس خلفى صب كلاما كثيرا ضد مسئولين كثيرين، وهى، فرحة القلب وحزنه وأساه الفائض، تسير هادئة.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

صـرخت: بثـينـة، بثـيناه، ومع اسـتطالة المقطع الأخيـر اصطدم صوتى بالتهاب لاعن من أفواه الناس، كانت تسير بمفـردها، فأبطأت السيـر، أبطأته حتى كادت تقف، بل ونظرت فى اتجاه الصراخ..

عسليتان عيناها، تدغدغان فراقا يلوى عنق الأيام الطويلة: «أنا أحـبك. نعم، لكنك لا تـصلح زوجـا لى». كنا فى حديقة ذات التفافات دائرية، مهدوها وأزالوا خضرتها لتصبح عمارتين، وكان النادل القديم أحس أن طريقى وطريقها امتلأت بالأحجار، فوضع الرجل فنجان القهوة فى هدوء ولم يسألها عما تود أن تشربه.

- بثينا..

حاولت اختراق أجساد الواقفين.. لكن الأجساد ظلت سادرة..

- حاسب يا أعمى..

- بثينا..

وتقلص جسدى كما تتقلص أجساد القطط والفئران والعرسات عند الإنضواء لتندس فى الشقوق الرفيعة..

- حاسب يا أخينا..

- بثيناه..

وما زلت منحنيا أخترق أجسادا وملابس، ولعنات حتى..

حتى فوجئت بضربة من الركبة أو لكمة من يد

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حديدية تخبط رأسى، فى قسوة، وحاولت الاعتدال لكننى سقطت تحت الأقدام.

قدم على الرقبة وأخرى على الكاهل وامرأة لطمتنى، فقاومت كل الضغوط، كل القوى المخزونة تجمعت لتشدنى إلى أعلى..

وإذا بلطمة أخرى تحت الأذن..

- بثينا..

وكان صوتى مكتوما، ويداى تتشبثان بقماس ولحم وشعر ودم.

ظللت أقاوم ويداى المتشبثتان بالقماش والشعر واللحم والدم لا تودان الإنفراج.. كنت أود أن أقف.. أن أقف فقط..

وكأنى حيوان غريب وقع بين أقدام قطيع غريب، وكل الأقدام تضرب.. والقماش واللحم والدم والشعر تضغط على صدرى، كان وجها دمويا ذا عينين جاحظتين، كانت رأس دموية على صدرى، رأس امرأة صارخة، فتهاويت على أرض العربة مرة أخرى..

- هل لديك أقوال أخرى؟

- لا.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مدار العذراء

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تحميل على عالم نجيب محفوظ

الحمد لله الذى خلقنا ذكورا وإناثا، لنستمتع ونتناسل ونرث ونورث، وخلق لنا الطيور والأسماك والمعرفة والإدراك والقدرة على قول الحق، والحمد الله الذى جعل من النباتات لنا قوتا ولغيرنا دريسا وتبنا، اللهم إنك مالك الملك الذى يدرك ما لا يدرك، ويفهم ما لا نفهم، ويرسم الغيب والغيم والبرق والخداع والشعارات وأنواط الشرف. أما بعد، فهذا هو عين ما حدث للسيدة الكريمة ذات الشرف المصون زوجة السيد أحمد عبد الجواد، ووالدة كمال وفهمى وعائشة وخديجة، والمقيمة طرف زوجها السيد أحمد عبد الجواد صاحب الوكالة الكبرى التى على يمينك بعد تحت الربع الملاصق لباب الخلق، أى فى حلق الغورية وعلى بعد خمس قصبات من زقاق المدق.

كانت السيدة أم كمال قرينة السيد عبد الجواد امرأة ليس مثلها كل النساء، تحب زوجها، وتحنو على أولادها جميعا، حتى ياسين ابن زوجة زوجها الأولى، الفوضوى المرح اللماح الطيب، وجد عندها من الحنو

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ما لم يجده عند أمه التى لا نعرف عنها شيئا، وما كانت أم كمال تخرج من بيتها الواسع الرحب ذى المشربيات الأنيقة البديعة إلا فى حالات خمس: صباح ثانى أيام عيد الفطر كى تزور مقام أبيها وعمها وأخيها فى (الدَّرّاسة) لتقوم بتوزيع الصدقة المناسبة من كعك وفواكه ونقود على المعوزين المقيمين بجوار فتحات المقابر منذ أيام، وأول أيام عيد الأضحى لتقوم بتوزيع الصدقة المناسبة، ومن لحوم وبقايا كرشة وسيقان على الجائعين المقيمين بجوار فتحات المقابر منذ أيام، ويوم عاشوراء - ليلتها التى يطلقون عليها تاسوعاء - وفى المساء بالذات لتقوم بتوزيع البقول من ترمس وسودانى وفول نابت على العابرين من أبناء السبيل، وفى ليلة شم النسيم حيث تتحلق مع جاراتها فى بيت البلانة - أو القابلة أو الداية - والتى تعد لنساء الحى فى تلك الليلة حفلا فخيما للزار وما يستلزمه من طبل وزمر ودعاء إلى الله أن يفك كربة المكروب، ثم المرة الخامسة، تلك التى تمر فيها على بيوت القبط المجاورين أولى ساعات فك صومهم وبداية التصريح لهم بالتهام ما يحبون من لحوم وزيوت ودهون. وفى العادة فإنها تصحب ابنتها خديجة، التى تعود فتحكى لعائشة ما يشرح الصدر وينشر الحبور. وهناك مرة سادسة خرجت فيها أم كمال من بيتها دون استئذان لزوجها السيد عبد الجواد، فقد تشاجر ياسين ابن زوجها مع زيطة صانع العاهات، بدأ الأمر

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

باحتكاك ساخر من ياسين، صعّده زيطة عندما احتضن ياسين مفتعلا الاعتذار، حينذاك. ضج أبناء الحتة وضحك رواد المقهى حينما اكتشفوا أثر القاذورات الطينية أو الترابية التى تركها اعتذار زيطة على الملابس الأنيقة لياسين، حيث تحول الهذر إلى مشاجرة من تلك التى تعودنا مشاهدتها والتفرج عليها فى هذا المربع، والتى صورها المخرجون كثيرا فى السينما.

وعندما صرخت عائشة وخديجة، الناظرتان من كوات المشربية، وهما تريان أخاهما ياسين وقد تمكن زيطة منه وأسقطه أرضا، جاءت أمهما من المطبخ تشاركهما فى الصراخ حتى قبل أن تستبين سببا للصراخ، وما كادت تبص من النافذة، وهى تمسك أو تمسح يديها بقطعة من أسمال المطبخ، حتى تناولت قماشة وألقتها فوق رأسها، وتناولت - فى الوقت نفسه - شيئا كالعصا أو الكبشة أو المكنسة، وهبطت السلم سريعا، وفى الأمتار الفاصلة بين باب بيت السيد عبد الجواد ومنطقة العراك: وبعد أن خطت أم كمال ثلاث أو أربع خطوات، دهمها ثور عابر مسحوب من خطمه نادرا ما يراه أحد فى هذا المكان إلا إذا كان نذرا قابلا للذبح، ثور ضخم ما كاد يراها - المشاجرة أو أم كمال - حتى تراجع للخلف ساحبا الرسن أو المقود من صاحبه، ثم لم يلبث أن هاجم أم كمال زوجة السيد أحمد عبد الجواد، دهمها بشكل أسباني وألقاها

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أرضا، ثم تراجع للخلف حتى انتبه المتشاجرون إلى ما يحدث، لكن الثور كان قد فتح بطنها ووقف بجوار الحائط حرونا.

-١-

من نافلة القول أن نسجل أو نرصد هذا الاتحاد والترابط الذى قوى أواصر الناس فى الوقت العصيب، نقلوا أم كمال إلى مستشفى قلاوون أو الناصر أو أحمد ماهر أو قصر العينى أو صيدناوى، وتقاطر أهل الحتة وراء السيد أحمد عبد الجواد المذعور المتوسل إلى الله تعالى دعاء باكيا بسلامة أم كمال، وكان سعيد مهران أول من صرخ فى تومرجى البوابة قبل أن يستبين الرجل شيئا من الأمر، وتلاه حسنين - الذى جاء فى أولى إجازاته فور تخرجه فى الكلية الحربية - حيث ساعد وجوده على تسهيل الاتصالات بالأطباء، ووقف أهل خان الخليلى وزقاق المدق، والسكرية وبين القصرين والرويعى وتحت الربع والنحاسين والتبليطة خارج المستشفى يواسون الرجل المحبوب الضخم المنهار، والذى - مع انهياره - ظل مستندا إلى السور، تاركا عائشة وخديجة وأم صبرية وعزيزة الخنفاء وسكرة زوجة عزوز ونجفة الهبلة وحكمت أم دراع وعين أبوها وسامية العرجاء - كلهن يصرخن أو ينحن (رجاء الانتباه للجزم المملّ مع نون النسوة) أو يزعقن فى اختلاط وزياط واضطراب، مع تأجيل رفع التراب فوق الرؤوس لحين وصول الخبر

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المؤلم اليقين: أمينة قرينة السيد أحمد عبد الجواد لفظت أنفاسها وطلعت روحها إلى بارئها، صباح اليوم التالى مباشرة، والذى نقله ياسين بنفسه، يستند إلى كتف فهمى، ثم لم يلبثا أن بدآ بإهالة التراب فى التياع.

-٢-

أيضا ليس من أخلاق القصة المعاصرة أن يسعدها نقل هذا المشهد المأساوى الذى - فى خلاصته - أن الخبر دك وجدان الجميع، ثور يأتى من موقع غامض ويدهم امرأة نادرا ما تخرج من بيتها، لكن الجميع - وبعد صدمة الخبر- بدءوا يستعدون لما هو أهم: تغسيل وتجهيز الأمة تمهيدا لتشييعها، وتسليمها لباريها، وبعد الظهر بقليل نادى واحد من عمال المستشفى بصوت عال وسخيف: كمال السيد أحمد عبد الجواد، ودخل كمال ومعه فهمى وياسين، (دعك من عودة النساء للصراخ) وتبعهما حسنين ومحجوب عبد الدايم، وأحمد طه، وظل عمر الحمزاوى مع أحمد عاكف يحولون دون دخول الرجل الكبير المستشفى.

كانت رائحة الفورمالين تملأ الجناح الذى سار فيه الجماعة وراء عامل المستشفى، ثم لم يلبث أن أشار لهم هناك، أى هناك أشار من جديد فى برود وتلقائية: فى المشرحة، الله يخرب بيتك، لماذا؟ يغور فى داهية، ورانا مصالحنا، وهكذا وصل الجميع إلى المشرحة، ووقفوا فى صمت، كان مبنى المشرحة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

منعزلا وكأن باقى المستشفى غاضب عليه، وجاء أحد العمال فتح الباب الأسود المشابه لباب جهنم، كان الظلام يعم الغرفة ذات الرائحة النفاذة، حين قدم لهم العامل (أورنيك) به اسم الفقيدة فقط أمينة محمد عبد الخالق الجبلاوى، وحاول فهمى أو كمال أن يكتب باقى البيانات، لكن الارتعاش حال دونهما، فتقدم محجوب عبد الدايم، وبدأ يسأل ويكتب: النوع: أنثى، السن: ستة وخمسون عاما، الحالة الاجتماعية: متزوجة. الديانة: مسلمة، الجنسية: مصرية، اسم مستلم الجثة (أعوذ بالله) كمال السيد عبد الجواد، علاقته بها، ابنها، السن: ثلاثة وعشرون عاما. التوقيع: كمال فكتب اسمه على (الأورنيك) ودخل التومرجى الحجرة، وعاد فنظر للجميع، ثم دخل مرة أخرى ممسكا ببطاقة صفراء ما يعلق حاملا بيانات الجثث عادة فى ثلاجات المستشفى.

-٣-

نادى الرجل - فى هدوء وبرود - على كمال وياسين وهمس: بطاقة الجثة مسجل فيها أنها عذراء، نعم عذراء، انظر: ونظر كلاهما، فعلا الحالة التشريحية: عذراء، ولابد أن تكون بيانات أورنيك استلام الجثة مطابقة لبيانات بطاقة غرفة المشرحة (أعوذ بالله)، اكتب فى الطلب أنها أنثى.

كان كثيرون من أهل الفقيدة قد تسللوا رجالا ونساء، من سور المستشفى ووصلوا إلى المشرحة،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وعندما انتشر لفظ عذراء، يعنى بنت بنوت، حتى أصدرت واحدة ـ لا نعرفها حتى الآن ـ صوتا شاخرا من تلك الأصوات المحتجة النابية التى يقوم بها فم مهذار، بنت بنوت، أم كمال وفهمى وعائشة وخديجة، عذراء، بنت بنوت، لم يلمسها السيد أحمد عبد الجواد، حتى إن الجميع تفشى فيهم ميل كاسح للمهاترة.

وكان لابد أن يتم تصحيح البيان: ممنوع الشطب فى بطاقة المشرحة، فلابد من أن يعترف الأبناء أن أمهم بنت بنوت، هو مجرد إجراء سهل نفعله ونستلم الأمانة ونتوكل على الله، لكن بسيمة عمران ـ القادمة توا من الإسكندرية ـ قالت فى هدوء حكيم: فماذا يفعل ورثتها أبناء بطنها إذا تقدم خالهم عبد الرحمن الجبلاوى بصورة رسمية من هذا الإقرار لمحكمة المواريث، ثلاثة دكاكين فى الحمزاوى ونصف وكالة وحوش الجبلاوى وربع سور النصر ونصف مدخل قبل جامع الحاكم بثلاثة أمتار؟

وصرخت حميدة ـ القادمة توا من شارع عماد الدين ـ أن الأمر ليس أمر وراثة، الأمر أمر المرجلة، (وأصدرت ذلك الصوت النابى من الأنف واحتكاك الشفتين)، وأعادت حميدة صياغة رأيها فى أناة: إن الإقرار بعذرية أم كمال هو إقرار فى الوقت نفسه ـ وأشارت للسيد أحمد عبد الجواد ـ بأن السيد ليس السيد، واندفعت فى الجموع ضحكات مكتومة أو

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

معلنة، لكن المؤكد أن الحقائق بدأت تطل بوجهها النمرودى، حينئذ احتد عمر الحمزاوى رافضا أن يمتثلوا لرغبات عمال المستشفى (وقال كلاما عن الارتشاء والارتزاق) واقتحم الرجل أبهاء المستشفى وعاد بمديره أو رئيسه الذى طمأن الجميع، وأمر بتشكيل كونسلتو (مجموعة استشارية) من الأطباء الموجودين بالمستشفى، وعلى الجميع أن يصبر، لأن تصحيح بيانات الدفاتر - معذرة بيانات بطاقة الثلاجة - ليس أمرا سهلا.

مضى عام أو ألف أو نصف ساعة، والجميع متساقطون نصف نيام حول الجدران حتى آخر النهار، والأطباء يدخلون ويخرجون، يرفضون الرد على أى استفسار، ثم لم يلبث أن جاء مدير المستشفى بنفسه ليعلن نتيجة الكونسلتو: أمينة محمود الجبلاوى: عذراء.

- ٤ -

لم يعد ممكنا الدخول فى مهاترات أوإعداد ردود جاهزة على استفسارات، ذلك أن آل أحمد السيد عبد الجواد وجيرانه وجدوا أنفسهم ملزمين بتقديم الأوراق الدالة على عدم عذرية أمهم، بحثوا فى الأدراج على قسيمة الزواج فوجدوا الاسم قد تلاشى - وتلاشى معه اسم السيد أحمد عبد الجواد مع أنه مكتوب بالحبر الزفر. أقرت نفيسة - أخت حسنين - بأنها ساعدت مرارا فى عملية وضع أم كمال ثلاث

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مـرات فى السنوات الأخـيـرة، حـسن الفـتـوة وأخـو حـسنين شـهـد بـأنه تشـاجـر مع فـتـوات آخـرين لأن أحـدهم ادعى أنه له عـلاقـة مبكرة بأمينة أم كمـال. صابر سـيد الرحيمى أقـر بـأنه شـهد أم كمال تتسلل خفيـة أواخـر الليل إلـى فندق الساوى، محـجوب عبد الدايم لجأ إلى عشيق زوجته فاعترف الرجل بأنه لا يستطيع أن يتذكر كل النساء اللاتى مررن فى حياته.

وانتـشـرت الجـمـوع فى أركـان القـاهـرة وأقـسـام شـرطتهـا ومـذكرات المشكوك فى أخـلاقـهم، وملفـات قـضـايا الآداب وأصـحـاب مـواهـب تقـديم النسـاء للوافدين، والعابرين، وأبناء السبيل، وخدم الصالونات، وتجـار المخـدرات، والقـابلات والمجـهضـات والمولدات، وباعة الهريسة، وأصحـاب السيـد أحمـد عبـد الجـواد، ومـرتادى سـهـراته، والغـوازى، وأصـحـاب الفنـادق، والمتسترين على عباد الله وكتبه وحوادث الصحف.

يبـحـثـون عـن وثائق تنفى عن السيـدة أمينة قـرينة السيد أحمد عبد الجواد عذريتها.

- ٥ -

وما زالوا يبحثون ويمحصون....

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

القارب المقلوب

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كنت مندهشا من هذا التعبير الذى فتح به روائى أخلاقى قصة له: لقد امتطيت القارب مقلوبا، فما بالك وأن قصتنا تبدأ بأننا - أنا وزوجتى - امتطينا القارب مقلوبا، ومثقوبا أيضا؟

قال أبى أشهر تاجر أسمدة فى المنطقة - «إذا نلت الشهادة الكبيرة فسوف أزوجك أجمل من رأتها عينك»، ولأن عينى لم تر فى شوارع قرانا ونجوعنا من تصعد إلى مستوى قرار أبى، ولأن أجمل من يمكن أن تراه عينى لابد أن يكون قابعا داخل تلك المبانى الضخمة التى يعيش خلفها السراة، فقد جعلت همى الحصول على الشهادة الكبيرة، تاركا مهمة تزويجى من أجمل من تراه العين إلى أبى. أبى الكريم، المرح، الثرى، الطيب، الذى ما كاد يعرف أن الشهادة الكبيرة «بكالوريوس التجارة» وصلت إلى مشارف بيوتنا، حتى بدأ الفرح الكبير بإطلاق النار، ورقص الغوازى، ثم أعطى أبى إشارة البدء إلى إخوتى وأخواتى، وكل نساء ورجال القبيلة، كى يختاروا لى زوجتى.. ورغم كل المسلسلات التليفزيونية والروايات والأحاديث والمواعظ والعقد والكوارث التى حاقت بكل من تزوج

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بلا حب، بل لم أر عروستى إلا لحظة تلمس الأنامل المضطربة للطرحة البيضاء ترفعها عن المجهول: عروستى، زوجتى، شريكة حياتى..

وكانت جميلة، بل أجمل من كل ما نقلوه عنها، وأجمل أيضا من كل رسم رأيته فى صفحة مجلة ملونة جميلة، وخالصة الجمال أيضا..

❖ ❖ ❖ ❖

وفى الأيام التالية بدأت سلسلة الاكتشافات الرائعة: ليست جميلة فقط، بل هى فتاة ممتازة ذكية، ذات صوت خفيض، يتدفق الحياء فى وجهها وعيونها فتضطرب الأهداب، ومدللة أيضا، فقد كانت وحيدة لأقوى عميل يتعامل فى تجارة الأسمدة مع أبى، ثم وهذا له أهميته ـ هى سليلة بيت مجد وفخار وأشياء كثيرة أخرى تزيدنى بها ارتباطا.

❖ ❖ ❖ ❖

خصص لنا أبى جناحا من ٤ غرف فى بيتنا الكبير، وأصبحت أنا مشرفا له وضعه على حسابات تجارة أبى، وكان أهلها يزورننا بين الحين والحين: بالخرفان والديوك الرومية وصفائح السمن..

وكان الجميع يحيوننا ويعتزون بنا..

ثم وقعت الكارثة..

❖ ❖ ❖ ❖

بدأ الخلاف بين أبى وأبيها واستشرى حتى اتهم أباها بأنه يسعى لقتله، وحاولنا، أنا وزوجتى، أن نبتعد

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عن مركز الإعصار، غير أن العائلة كلها بدأت تنظر إلى على أننى أحب زوجتى أكثر من حبى لأبى..

- وإلا..

- فلماذا لا أتعاطف مع أبى فى موقفه الحانق الشرس ضد صهرى؟

- وماذا أفعل؟

- طلق زوجتك!

❖ ❖ ❖ ❖

ذهبت زوجتى فى زيارة لأهلها - وهم سراة القرية المجاورة - ولم تعد.. توجهت إليها مدعما ببديهية لا يعارضنى فيها أحد - أو هكذا توهمت - إننا - أنا وزوجتى - لا دخل لنا فيما يحدث..

لكن أهل زوجتى رفضوا استقبالى، وفى اليوم التالى جاءنى تحذير واضح: إذا حاولت مرة أخرى فسيكون فى ذلك نهايتى، ولقد جاءنى التحذير الجاد من الأسرتين فى وقت واحد وبتصميم واحد..

❖ ❖ ❖ ❖

قابلت أمى فاكتشفت أن سنوات الجمود داخل الجدران العالية لم تترك فيها إلا الدعاء المستمر الباكى بطلب الستر من الله.

توجهت إلى أبى فوجدته غاضبا، قررت أن أناقشه، أخذته فى حجرة جانبية منفردا به، حاول أبى أن يكون هادئا، قال: لا يمكن أن أقبل نفسا واحدا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يتردد من رائحة هذا الرجل - صهرى - فى بيتى، ثم قال أبى وزوجتك لا تنجب، ثم قال أبى سوف أزوجك بأحسن منها ألف مرة، ثم قال أبى زوجة تليق بابنى، ثم قال أبى لن تكون ابنى إذا لم تقف معى، ثم قال أبى، وقال وقال، وكان هادئا لكنه كان قويا غاضبا.

❖ ❖ ❖ ❖

وحدى، لا أعمام ولا أخوال ولا إخوة الكل جند نفسه لمناصرة أبى، لكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا الوضع المرهق، كنت قد اكتشفت أننى أحب زوجتى، وأنها - بهدوئها وحيائها الذى يريق الرقة على وجهها - لا تستحق أن تدخل فى مجال الضحايا بين أسرتينا بأية حال، لذا فقد استطعت عن طريق صغار الأعوان - وفقراء البيوت الضخمة - أن أدبر لقاء سريا مع حبيبتى، نعم كنت كطالب وقع فى مأزق حب مع فتاة للمرة الأولى، وعندما التقيت بزوجتى كانت تبكى فلو عرف أبوها أنها قابلت زوجها فسوف يقتلها.

وقررنا مواجهة الأسرتين.. لجأت إلى ذوى الحيثيات والمناصب وخبراء الصلح فى البندر والقرى المجاورة، لكن الجميع خذلونى!

طلق زوجتك. أو انتظر حتى تهدأ العاصفة، وكيف تهدأ عواصفنا ونحن نستطيع أن نتكاره ونتصارع بالخمسين سنة؟

❖ ❖ ❖ ❖

وقررت الهرب مع زوجتى. زوج يهرب مع زوجته،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وكأننا صبيان اجتاحتهما حمى الحب دون استعداد، أهرب مع زوجتى وسنى قاربت الأربعين، ولم يكن هناك مناص من أن نمتطى الزورق مقلوبا.. أستأجرنا غرفة فى بيت كئيب فى البندر الذى تتبعه قريتنا، وما كدنا نقيم السرير الصغير فى هذه الغرفة حتى جاءنا الخبر: لقد طردنى أبى من وظيفتى، هذا متوقع، وحرم صهرى زوجتى من ميراثها، هذا متوقع، وسوف يقتلوننا..

❖ ❖ ❖ ❖

كانت زوجتى هادئة صامدة قالت وهى تخرط البصل وتضعه فى الطاسة على وابور الجاز، القريب من السرير: مدير البنك كان زميلك لماذا لا تذهب إليه؟ وقالت زوجتى وهى تخيط تمزيقات فى جلباب نومى: تاجر الجوالات الفارغة يحبك لماذا لا تذهب إليه؟ وتاجرت فى الثوم، والبصل، والكرنب، والأرز، والشعير، وبدأ الوابور يبتعد عن السرير ليصبح فى مطبخ، وأصبحت الحجرة حجرتين، وبدا أن القارب المقلوب لم يعد مثقوبا..

وفى السنة الرابعة همست لى زوجتى: سيكون لنا ابن.. فرقصت وحدى فى شقتى الصغيرة والحياء يريق الفرح على وجه زوجتى.

❖ ❖ ❖ ❖

بدأت الأنباء تتسلل إلينا: ظهر مناوئ جديد، خصم شرس ضد أبى، وضد أبيها أيضا، تاجر أسمدة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

اخترق الاحتكار واستطاع أن يوصل الأسمدة للفلاحين في بيوتهم..

وقامت الدنيا،،

واستدعاني إخوتي، قالوا سمعنا أنك سوف تعمل مع هذا التاجر الجديد، وقالوا لا يمكن أن تترك أباك في هذه الزوبعة فهو في النهاية أبونا، وقالوا: كل شئ يتصلح، وعندما عدت إلى زوجتي: رفضت، قالت: نحن نعيش - مع ابننا - في حدودنا، والقارب المقلوب متوائم تماما مع حياتنا، حتى إننا لم نعد نحس بأنه مقلوب يكفي أنه غير مثقوب..

ورفضت العودة إلى أبي..

كما رفضت أن أعمل مع أحد خصومه..

ورفضت زوجتي أن تعود إلى أبيها..

وبين وقت وآخر يحلو لنا أن نترك لأقدامنا حرية العبث في الماء ونأخذ نفسا عميقا..

ونعود فنتاجر في الخضراوات والفواكه والبذور..

وأحيانا نضحك..

ونتعابث مع الطفل الصغير.. الذي - إذا ما حصل على الشهادة الكبيرة - فسوف أزوجه أجمل فتاة تقع عليها عيناه أو عيناي..

والقارب المقلوب يشع بالمرح، والمرح يشع برذاذ الماء..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أشرب اللبن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

انظر إلى المسألة بعد أن تخرج من قاع البئر. وبمجرد الخروج من قاع أى بئر فإن المسألة تطير ولا تصبح قابلة للنظر.. نعم: أنا أشير إلى موضوع أمى، أمى التى ولدتنى بعد أن حملتنى ثلاثة أرباع العام، وظلت تجاهد وتهابر لترعانى حتى استقر إرضاؤها بندا أساسيا بعد التوحيد لدخول الجنة.

دعك مما فى ذهنك لأنه بعيد عن المسألة، فستظل الأم أما، هذا الدفق النادر الحنون الساحر الرقيق الغضب، وجاءنى أحد أعمامى فى المكتب وانفرد بى وقالها صراحة: إذا لم تمنعها فسنتولى نحن الأمر. قلت - وأكاد أبكى - بمجرد أن أنهى بعض الأعمال سأسافر إليها، ورمقنى عمى فى حدة كأنه يعلم ما بداخلى.

وانغمست فى جلسات مؤتمر حماية أبقار البحر المتوسط من أمراض البحر المتوسط، ثم الندوة العالمية لعلاج الحزن بأشعة الليزر، واستقبلت وفدا من فنلندا يعالج الخشب بالكحول، ويعالج الكحل بأوراق الصحف، بعدها اعتذرت عن عدم حضور حفل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

استقبال الجمعية المصرية لمكافحة الجراد، حيث كنت فى قريتنا المساء نفسه.

بالأحضان، بكت أمى قليلا لأننا لم نعد نزورها، شكت لى من التهاب فى الزور وألم فى الجانب الأيمن، وسألتنى عن أولادى، وعن أهل زوجتى. كانت نحيفة لكنها ظلت ساخنة الكلمات والعبارات، بدأت أسعى إلى فتح الموضوع الشائك، عيون الحنان تشع عنادا وحبا، قلت لها إن عمى قد زارنا، وقلت لها إن عمى كان غاضبا، وقلت لها إنه شديد الغضب، ظل جسدها النحيل أكثر نحولا، أخرجت لها نقودا فضربتنى على كتفى ضاحكة وغاضبة ورفضت قائلة: سأظل أنا التى أعطيكم النقود حتى ولو أصبحتم رؤساء وزارات، لكن يا أمى، اسكت يا ولد، تسربل الموضوع الشائك واندس فى سرداب الخوف، ولماذا أنا بالذات الذى يكلم أمى فى هذه المسألة، الواخزة؟ المسافر شمالا والمتاجر جنوبا، المقاتل على الحدود، الكل لا يصلح عداى؟ ولماذا استجبت لعمى من دون أن أطرح مشاركة باقى إخوتى؟ ولماذا لا يكون..؟ ونمت إعياء..

لا أحد فى العالم يستيقظ مبكرا قبل أمى، الدعوات تنهمر فى حلق الفجر تتوسل إلى الله أن يزيدنى - وإخوتى - فى المال والعيال والسعادة والصلاح ورضا الخالق، فكيف يتسنى لى....؟

وأنا أرتدى جاكتتى قلت فى تصميم نصف أحمق:

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عمى غاضب، وقلت فى غضب واضح: عمى غاضب منك، لم تسألنى لماذا؟ كوب الحليب على كفها فتناولته مضطربا، عيناها اتسعتا ونظرت فى وجهى وقالت: اشرب اللبن..

جلست أشرب اللبن والكوب يستطيل بئرا، وأنا أحاول تسلق الجدران كى أخرج من قاع الكوب، عادت أمى ووضعت يدها على كتفى ثم ابتسمت وقالت بصوت واضح: اشرب اللبن.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الملطوع

أمره للمرة الألف أن يقف بعيدا عن الباب، بعيدا جدا عن الباب، ظل «ملطوعا» يكاد يقع، اقترب منكسرا وقال للحارس: إنه ابنى.

رفع الحارس رأسه إلى أعلى، أغمض عينيه فى صبر، أمره بهزة من رأسه، وللمرة المليون، أن يقف بعيدا. ظلت النخلات المتباعدات فى الحديقة ترنو فى غباء، ولملمت ظلها استعدادا لاستقبال الليل، دفع الحارس الباب الحديدى للحديقة حتى كاد ينغلق:

- إنه ابنى وأنا أبوه..

خبط الحارس مصراع الباب فى المصراع الآخر وقال فى أناة وأسنانه تصطك:

- يا حبيبى، يا عمى، يا سيدى، يا تاج رأسى، ممنوع دخول، حتى الهواء تفضل من الباب الشرقى، أعمل معروفا واذهب من هنا..

ولم يستطع أن يفعل، فالحديقة تتمدد على نصف قارة لا يمكن لعين أن تتابع حدود أضلاعها، أى ضلع: شرقا أو غربا، من دون أثر لأبواب، والظلام استأثر بنهايات الأفق، وسور الحديقة المبنى من الطوب

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الأحمر المنتظم يحجب كل شىء عدا قمم النخلات المتباعدة.

قال فى نفسه: أخرجت له البطاقة لكى أثبت له أننى أبوه فرفض النظر إليها، أفصحت له عن اسمه واسم أولاده واسم زوجته الأولى ثم الثانية فصمم أن أبتعد، رفعت صوتى محتجا، ثم سحلت صوتى على الأرض متوسلا مذلولا، ثم دعوت له - مخلصا - أن يعمر الله بيته، من دون جدوى.

لم يبق إلا شىء واحد: أن أقتله.

كان الحارس قد أغلق البوابة تماما، وركن إليها من الداخل فظهر جسده الغليظ من فراغاتها، لتتناثر بقع العتمة الغليظة على ثنايا الرقبة والملابس، كأنه يهيئ له وضعا مثاليا كى يقتله.

كيف يتسنى له أن يقتله؟ كان إيقاع تنفسه قد اضطرب وخلط الشهيق بالزفير، اصطكت إحدى ركبتيه مستجيبة لاصطكاك أسنانه، والحارس أعطاه المنطقة الخلفية المسالمة من جسده، فكيف يتسنى له أن يقتله، لا سكين ولا مطواة ولا مسدس، ولو امتدت يداه إلى عنقه، من بين فواصل البوابة لما تمكن منه، حركة مثل هذه تحتاج إلى دراية، وكل الذى فعلته يداه فى الستين عاما الأولى من عمره: التحية والسلام ولف العمامة والتصفيق، وإعداد اللقمة للابتلاع وارتداء الملابس.

يقتله!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وبدأت عيناه تمسحان الأرض بحثا عن حجر مناسب.

كان الطريق المؤدى إلى القصر مفروشا برمل ناعم وعلى أجنابه نجيل ناعم، وبين الناعم الأول والناعم الثانى نباتات ناعمة كعيدان البرسيم أو أعناق الملوخية، ولا توجد حتى طوبة، من ذلك الذى يتناثر فى مثل هذه الأماكن، يرميه بها رمية دقيقة، ولا غصن شجرة يمكن أن يحوله إلى عصا، اقشعر جسده عجزا، أين البرق والرياح والزلازل وشواظ النار والزنابير والرعد والطير الأبابيل والبراكين وسقوط الجدران!

وظل الجو هادئا يخلو حتى من نقيق جنادب أو ضفادع.

لم يبق إلا الدعاء عليه.

الحارس مستند بكل جسده إلى البوابة المغلقة، والدعاء يحتاج إلى وقت طويل ممل ليصبح مستجابا، ووقت طويل ممل آخر ليصبح فاعلا ومؤثرا.

بل إن نسبة ضئيلة جدا من الدعاء هى التى يسمح لها أن تصل إلى منطقة الاستجابة، ونسبة أقل تتاح لها الفاعلية.

وكيف يتسنى له أن يطلق دعاء صحيحا وهو لا يثق إن كان جسده طاهرا؟

كيف يطلق دعاء صحيحا، ويرى نتيجته الآن؟

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

والظلام يلف كل تكوينات العالم ولم يعد باديا إلا كتلة الحارس وكتلة البوابة.

آه الظلام! والأمور فى الظلام لها طبيعة أخرى، طبيعة ناعمة متسللة قادرة على النفاذ والاختراق.

وفجأة ـ وفى أغوار هذا الظلام ـ وقبل أن يقع من الإعياء على الأرض، انطلق صوت بالغ الضجيج: الصوت الضاج يناديه فى غضب، وقف مرتاعا، يناديه باسمه كاملا، ويكرر النداء فدهمه الاضطراب، ووقع على وجهه ثم أسرع واقفا، كانت صرخات مصراعى البوابة انطلقت فى أثر اسمه، البوابة تفتح..

وجاء اسمه للمرة الثالثة، وقدماه تبحثان فى سرعة المذلول عن فردتى الحذاء، وفردتا الحذاء انغرزتا فى الرمال، انطلق حافيا أيها المسكين، لكن قدميه وجدتا الفردتين، واندفع إلى البوابة واسمه الكامل لا يزال ينفجر كالرعد فى الجو.

حاول أن يصبح سهما منطلقا إلى البوابة، سحبت أكتافه المرهقة جسده الواهن، وسحب جسده الواهن أقدامه المضطربة، وكل أجزاء الجسد المكدود تحاول التواصل كى تجتمع لتبدأ حركة الاتجاه الأولى، ثم الحركة الثانية، فالخطوة الرعناء وراء الخطوة الضاجة، والشحن المتواتر يمتزج بالاضطراب حتى وصل إليها.. إلى البوابة..

كان الحارس يضغط على المصراعين فانطبقا.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ـ نعم؟؟

ـ إنه ابنى.

ـ آخر مرة: لسنا تحت أمرك، اذهب إلى المدخل الشرقى.

ـ إنه ابنى وأنا أبوه.

وبدأ يخرج للحارس أوراقا لا يمكن لأحد رؤيتها فى الظلام، صرخ فيه الحارس: ممنوع. وأضاف: هل هى فوضى؟ وصرخ فيه الحارس، لن تدخل إلا على جثتى، وأسند ظهره إلى البوابة.

كان ظهر الحارس المكتنز قد استرخى فى حسم وظل الرجل و اقفا صامتا مظلما (ملطوعا) على البوابة مرة أخرى..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

القلش

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قلش يقلش: أى أتاح لك فرصة أن تصبح خاوى الوفاض، وألقيت بالقلم فكاد يفتك بالورق، نظرت للنهر أتابع قاربا بخاريا يسحب خلفه الموج والغيوم والاضطراب، رفعت سماعة التليفون مرة ثانية: نعم أنا هو، معقول؟ أهلا وسهلا، قال الصوت المنهمك فى زف البشرى: الرجل يسأل عن عنوانك من أيام، وقال: أحضر له نقودا كثيرة، وقال:أخذها كمال القلش - هل تعرفه؟ قلت: نعم أعرفه، وقلت: التقيت به مرة واحدة عند صديق مشترك فى المعادى، و قلت: سأتصل به حالا، وقلت: أشكرك، وقلت: شكرا جزيلا، الحمد لله، ومع ذلك ظلت شجرة المانجو العارية تخفى أوراقا نضرة، الأستاذ كمال القلش لو سمحت، أصخت السمع طويلا وكأنى أستتبىء من الوشوشات المجهولة بوادر مشاحنة، جاء صوته كما توقعت: غارقا فى الوسن مفتعلا الشرور من أثر المفاجأة الجميلة، قال: هذا صحيح ونحن نبحث عنك. وقال: اسمه نوفل، وقال: وعدنى بزيارتى أمس لكنه لم يحضر، والنقود؟ قال: آسف لم يسلمنى شيئا، لكنه - أضاف - سوف

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يلتقى به اليوم، وقال: اطمئن، تظاهرت بالرصانة والهدوء فقلت: وأين تنزل؟ قال: أعتقد فى ماريوت، بالضبط: فى فندق ماريوت. حجرة ٦٧٠، سلم لى عليه، قلت فى حياء ضرورى كم النقود يا أبا كمال؟ قال: كثيرة، نقود كثيرة لكنى لا أعرف عددها، مبروك، يا عم قلت: والله لقد جاءت فى الوقت المناسب، وقلت: الحمد لله، صهرى مات رحمه الله، من أسبوعين، وقد استلزم الأمر نفقات غير متوقعة، والفندق المشار إليه على مرمى البصر من مكتبى، فستان شتوى، ومعطف صغير، شواء اللحم فى البيت أفضل، اسمه كباب ودعك من ألفاظ مجمع اللغة العربية، ثلاثون جنيها لأختى فى البلد، وخمسون لأخى هدية رمزية إزاء ما يشملنى به، اجعلها خمسين ومائة ما دام الله قد فتحها عليك، القسط الثانى، ثم هناك إصلاح الفيديو فلنؤجل إصلاح الفيديو فى ليلة قدر أخرى، ودعك من القسط الثانى الآن، وصالح الصياد مريض بالكبد فى طنطا ألا يستحق زيارة سخية؟ يا أخى أنت فى حاجة لشىء، وزيارة الأقصر فى نوفمبر ترد الروح، كيف يمكنك التعرف على الجلد الصناعى والجلد الطبيعى؟ «أرم قرشين» لبائعة الزبد حتى توالى موافاة البيت بما يشتهيه العيال، ويمكنك إغلاق الفتحات التى حاصرتك بعد أزمتك الماضية، القلب الواجف لا يجيد الكتابة، وهناك قصة تنقر جدار العقل تود الانطلاق على الورق، لكن، والكولسترول يترسب على حوائط الفؤاد، وتغيير

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

النظارة التى يهاجمها الإعتام، ما رأيك فى وزير الثقافة الجديد؟ ولماذا رأيى الآن؟ لا يمكن أن يكون صحيحا أن الأكسجين يساوى خمس الهواء، الجو جميل وشجرة المانجو تتراقص فى نسيم الخريف، ثم هناك الحكاية الخافية عن الجميع والطافية فوق موج الأمنيات، هل اتصل بها؟ أعتذر إليها وأذيب الجليد، نأكل سمكا، أو كبابا أفضل، هى تحب الأكل، نهمة شرهة جميلة نحيفة تتحمل كل اللواذع والسخافات، سأعالج الأمر بهدوء وسلاسة، فى اتساع بحيرة الفيوم مجال لتسديد كل الخانات، فى المرة الأخيرة قالت: أنت لا تفكر إلا فى نفسك، سأفكر فيك يا بنت الناس، وسجادة صلاة لأمى، ستدعو لى بطول العمر وأن يسترها الله معى دنيا وآخرة، قال موظف استقبال الفندق، عند الآنسة، وأشار بسرعة ثم أنكفأ فى الدفتر، الآنسات كثيرات، قال الموظف - بضيق - هناك وأشار إلى كل الآنسات، قالت واحدة: التليفون على اليمين، قلت: أنا لا أريد التليفون، الأستاذ نوفل حجرة ٦٧٠، قالت التليفون على اليمين وتركتنى.

اتجهت إلى ما أشارت، وبناء على التعليمات المعلنة على الحائط خلف التليفون أضفت ٧٠ إلى رقم الحجرة، ومضت قرون والجرس يدق والقوافل تعبر باب المندب محملة بالزنجبيل والفلفل، وترش المسحوق على الكباب وسلاطة الطحينة، والقلب الواجف يطارد صوت جرس التليفون، نعم، نوفل، آه، دفع الحساب الإقامة وغادر الفندق، إلى أين؟ لا نعرف،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

إلى أين؟ سيسافر اليوم؟ إلى أين: إلى غيوم البحر وأمواج السماء؟ قلت لكمال القلش لاهثا: لم أجده، قال: آه وقال: بعد أيام سوف يحدثنى من هناك، وقال: فى الحفظ والصون، وقال: لا تقلق، وقال: إن لم يتصل هو فسأتصل به أنا.

كان القلم قد توسد الورق، ومعظم السطور اضطربت وسقطت بعض كلماتها، والنهر ساكن كوجه أرملة صابرة لم تعد تذكر رحيل رجلها، وشجرة المانجو طرحت الجفاف وبدأت تعوى فى الفراغ، وجلست على مقعدى، وكنت مرهقا وصورة القلش تحاول أن تجد لها بروازا فى جمجمتى.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الارتباط

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

❖ عمل مذيعا ثم مدرسا ونجارا وكلبا وحمارا، ثم تاجرا للدريس وناظما محترفا للأشعار، فمديرا لشركة توزيع لحم الرقبة وحبال القوارب وطوب المقابر، ثم بارك الله فيه ليمتد نشاطه فى أشرطة التسجيل ومنع الحمل وكتب المدارس، فلما استقر به الأمر قضى وقت فراغه فى لعبة الجولف ورئاسة تحرير الصحف فى الظهيرة، ثم تهريب جريد النخل وتسويق الألسنة والأمعاء فى آخر النهار، بعدها نصحه وطنى غيور فكتب مذكراته السياسية فى منتصف الليل، وفى الصباح تقدم ليتزوج حبيبتى، فوافقنا جميعا مهللين.

❖ يوم الفرح ارتدينا الملابس الجديدة المزركشة اللائقة، ورقصنا فى زفة العروسة المنجلية، التى ظلت تبتسم فى حياء وسعادة حتى هيأناها له، وأطلقنا عبارات البهجة والعرفان، فرقص النخل وتطاير الليف وتحنجل القمر بين نسيم الغيوم، ورددنا الأغانى الملونة والمواويل المزركشة بالفخر والزهو، فخرج العريس من داره الجديدة بالغ النشوة وتسلم فى إعزاز حبيبتنا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فازددنا صخبا وانتشاء، وعدنا هائعين شبعانيين إلى بيوتنا.

❖ وفى اليوم الثالث أعدنا ارتداء الملابس السعيدة القشيبة، وتجمعنا فى باحة داره الجديدة لنستمتع بالوليمة والثرثرة والتنافس فى دفع النقوط، وتوسطنا العريس الفرح ذو الرائحة الخلابة، وأخذه الزهو فحكى لنا منبسطا تفاصيل ليلة الاقتران وتجربة الزفاف وما لابس ذلك من مسائل سارة، فازددنا حبا له.

❖ وفى اليوم السادس وزع علينا أكواب الهناءة، وعلب لحم الرقبة، ولفافات الأمعاء، وألبوم صور ملونة يمور بأشكال من ذكرياته مع العروسة فى مختلف أركان البيت، ثم بدأت الهمسات تتسلق الحوائط وتنسل من السنابل والنوافذ والكوات وبرامج التليفزيون: العريس مربوط.

❖ وفى اليوم العاشر ضحكنا وتشجعنا فقدمنا للعريس المربوط تمائم وأحجبة وبخورا، ثم نصحناه أن يلتهم ورك قط نفور متوحش مضمون الذكورة، وأشرنا للعروسة أن تدهن جلدها بزيت الباذنجان وتدعك سرتها بمسك الغزلان، وترش تحت إبطيها ماء الحياة، ثم تصحب العريس - عاريين - فى باحة الدار، وقبل أن تأوى إلى الفراش عليها ألا تتذكر أحدا أو موقعة أو موعظة أو أمنية قديمة.

❖ وفى اليوم الألف اكتظت دار العروسة الحبيبة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بقوارير زيت الحنش ومحلول الأفيون ومشافر الحمير ومحاشم الصقور والقصص القصيرة، وخرج العريس غرابا مهيض الجناح، يتعثر فى القوارير والطوب ويستند إلى الحيطان، ليزف إلينا بنفسه الخبر السعيد، العروسة حامل، وبدأ يتحنجل فرحا، فانطلقت الزغاريد من كل مكان احتفاء واحتفالا وبهجة، وانهمرت الأدعية أن يشمل الجنين باليمن والنمو والبركة والسعادة، حينئذ تجاوب الغراب معنا فطار إلى أوج النشوة، فقرر أن يكسو كل عريان وأن يشبع كل جائع وأن يخضب كل عاقر، وأن يسدد ديون كل موظف، فدعونا له وهللنا، قررنا ألا نتوقف عن الزغردة والتطبيل والحنجلة والقصائد والرسم والتوقيع حتى تضع العروسة الوليد المأمول.

❖ كنا شديدى التواصل والتراحم فبكى الغراب امتنانا وبدأ يتقلب - سحلية فى ضوء الشمس، واهتزت العروسة من الشجن، واهتزت منفعلة شديدة الخفر، فى شق بين حجرين.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فى حضرة السيد الرئيس

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الرئيس عاوز يشوفك!!!

حدقت فى عيون صديقى الذى يعمل أستاذا فى الجامعة. وكان همسه واضحا وعيونه تفح بالسخرية. فأيقنت أن الرئيس الذى يطلبنى ليس الريس متقال قناوى عازف الربابة ولا الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية، ولا أى ريس معروف لى شخصيا من رؤساء تحرير الصحف والمجلات، ولا رئيس أكاديمية الفنون الذى كان الدكتور رشادى رشدى الذى كنت أكرهه عمى!! ولا رئيس عمال سكة حديد مصر العليا!

لا يوجد سوى رئيس واحد!

رئيسى ورئيس الجميع..

الرئيس الأعلى..

- ١ -

كنت أيامها أخطر ثوار الحركة الثقافية على الإطلاق.. كنت - أنا وأمى - نحب عبد الناصر حبا لا علاقة له بكل الحيثيات التى يؤكد بها كل المحبين هذا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحب، من مشروعات واستقلال وجلاء وسد عال وإصلاح زراعى وتأميم وتمصير..إلخ.. حبنا نابع من داخل المنطقة الغامضة فى القلب الحى والذى يجعلك تكره شخصا فى المجلس دون أن تعرف عنه شيئا.. وتحب شخصا آخر بنفس الغموض، حب لله.. أى حب مجانى دون فلسفة.. واشتعل الحب أكثر ممزوجا بالأسى حينما رحل عبد الناصر..

ولم يكن من السهل أن نقبل شخصا آخر مكان عبد الناصر، مهما كانت الأسباب والأفعال، ولذا فقد ظهرت كراهيتى لمن حل محله!

ولما كان التاريخ مهذبا فقد أطلق على الكراهية لفظ «المعارضة» هذا بشأنى، أما بشأن أمى فقد ظلت كراهيتها سادرة دون معارضة، وحينما كانت تجلس أمام التليفزيون وتراه يخطب تظل ناظرة إليه وهى تمصمص شفيتها كأنها تتحمل كلامه قسرا..وعندما كان يتناول عبد الناصر بالنقد أو السخرية أو التجريح.. فإنها تقوم من أمام التليفزيون لاعنة اليوم الأسود الذى جعل الثعالب مكان السباع!! وبالنص: «لما رقصوا الخيل مدت الضفادع أقدامها!» وقد وصل الأمر بأمى أننى ـ مرات ـ استيقظت فجرا فوجدتها منهمكة فى الدعاء عليه: «إلهى» يلموك حتت، إلهى يوحدك!» ومعنى ذلك أنها تطلب من الله أن يجعله يعيش وحيدا.. وأن يجمعوا قطعا.. وقد لبى القدر بعد ذلك رغبة أمى كاملة وبدقة مذهلة!!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ولما كنت أنا لا أصلح لما تقوم به أمى فقد ظللت مركزا معارضتى فى قصصى وكتاباتى حتى إننى فى مرة سابقة دعيت مع وفد من الأدباء للقائه بالإسكندرية ونزلنا فى فندق ضخم وأثناء انتظارنا للسيارة التى تقلنا إليه دهمتنى رغبة صبيانية ـ وهى أقصى حالات المعارضة ـ أن أفر إلى الشاطئ وظللت يومها على الشاطئ متجولا ومستعذبا أن آخذ هذا الموقف.

وعندما عدت إلى الفندق آخر النهار فوجئت بالوفد وقد عاد إلى القاهرة بسبب انشغال الرئيس فى لقاء آخر بمدينة الإسماعيلية على بعد مائتى كيلو متر من الإسكندرية!!

ـ ٢ ـ

ومضت الأيام فإذا بكثير من الأصدقاء ـ المعارضين والمؤيدين ـ تبوأوا مقاعد وحصلوا على مكاسب واضحة، والذى وجد مكانا بالجرائد القومية والذى وجد مكانا بصحف المعارضة، ناهيك عن المقاعد والكراسى فى الأكاديميات والمؤسسات والتليفونات الفورية والشقق السكنية حتى إن بعض أصدقائى أعاد تغيير شقته كاملة بما فيها زوجته وأولاده إلا أنا الذى فوجئ بهذه الجملة الساحرة:

ـ الريس عاوز يشوفك!!

ولما كان صد يقى ـ أستاذ الجامعة الآن ـ لا يكذب،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بل وليقينى أن له علاقة صداقة ببعض رجال الرئيس الذين يحبون أن يبدوا من ذوى الصلات الفكرية بالأدباء والمفكرين! فقد أيقنت أن الساعة ـ ساعة الحظ ـ قادمة، ولابد لى من الاستعداد لاستغلالها استغلالا كاملا.. وعندما أعادنى صديقى بسيارته إلى مسكنى وجدت أن الأمر صحيح وأن سيارة خدمة الرئاسة ـ هكذا قالتها زوجتى وهى منبهرة شديدة التألق ـ سوف تمر علىّ صباح الغد فى الثامنة لتحملنى إلى الرئيس.

ولن أتوسع كثيرا فيما مر بى ليلتها: شقة وتليفون، عمود يومى فى جريدة قومية، سيارة تدفع رئاسة الجمهورية الجزء الأكبر من أقساطها من المصروفات السرية أو من وزارة الأوقاف، زوجة أخرى.. لا داعى لذلك الآن.. وظللت أتقلب على أعتاب القصر الجمهورى بين الشقق الواسعة والأثاث الفاخر والرحلة المؤكدة إلى باريس.. ولماذا لا يكون الرئيس معجبا بأسلوبى وقرر أن يستعين بقدراتى، التى تفوق قدرات الزملاء الذين يكتبون مقالهم الأسبوعى فى صدر الصفحات المزركشة بالمربعات والمثلثات والخطوط.. والتى تحمل كلامهم المهم جدا والذين «هؤلاء الأصدقاء» يعتذرون فى بعض الأحيان عن عدم كتابة هذا المقال الأسبوعى اعتقادا منهم أن أحدا يقرأ ما يكتبونه.. دعك من هذا ـ قلت لنفسى ـ ولأنتبه لمصلحتى!!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

- ٣ -

وبعد مليون عام جاء الصباح وجاءت الساعة الثامنة وجاءت سيارة خدمة الرئاسة.. كان الضابط المرافق مهذبا.. شملنى بعطفه وإحسانه.. وعندما انطلقت السيارة الفارهة المرعبة فى الطريق الصحراوى أشار لى مرافقى المهذب بأن السيد الرئيس ينتظرنى فى برج العرب وهى منطقة خلوية على الساحل الشمالى المصرى، أى قريبة من الإسكندرية.. ثم امتزج معى فى كلام حول سبب تسميتى «مستجاب» فأوضحت له أن هذا اسم جدى، وقلت له إن كل واحدة فى قريتنا والقرى المجاورة أطلقت هذا الاسم على مولودها فإنه يموت قبل أن يكمل سنواته الخمس، وبالتالى فقد أصبح شؤما على غيرى!!

وعرجت فى حديثى على السيد الرئيس.. فقمت بإزجاء الفخرية والاعتزاز بعصره وأضفت أن المعارضين لم يفهموه فظل ساكتا لكنى كنت قد تحصنت من كافة احتمالات نقل الكلام أو التسجيل فى السيارة.. إذ إننى لست مستعدا أن أبدد هذه الفرصة.. ولما بدأت أتوسع فى الصفات الكريمة للرئيس نظرت بجانبى فوجدت مرافقى قد نام!!

حاولت - كما تعودت - أن استمتع بالرحلة الخلوية فى الطريق الصحراوى دون جدوى: محمد مستجاب رئيس تحرير الأخبار .. لا الأهرام أفضل.. إننى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أفضل المقعد الذى كان يشغله محمد حسنين هيكل!!
أليس من الأفضل أن أظل كاتبا حرا دون منصب؟

إياك أن تنحرف عن طريق الكتابة وتقبل تعيينك محافظا لأسيوط أو سفيرا لمصر فى البرازيل، أو زميلا فى كلية الجراحين ببريطانيا أو مديرا لحدائق حيوان الجيزة، أو ممثلا شخصيا للرئيس فى اتحاد كمال الأجسام!!

وعندما انحرفت السيارة يسارا وغاصت فى طريق جانبى أخذت سمت رجل مهم حيث كان مرافقى قد استيقظ، وفى الوقت المناسب تماما كانت رأس أحد الحراس الضباط قد أمعنت فى السيارة، وانطلقت الإشارات الساحرة.. لتندفع السيارة إلى طريق ثعبانى فى حديقة واسعة تطل على البحر.. وحينئذ وقفت السيارة ليفتح لى أحدهم الباب.. فشعرت بزهو يثير الرعب فى أعتى القلوب..

- ٤ -

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا بقليل حينما بلعت زهوى ووقفت فى بهو واسع ملىء بلوحات الحوائط.. لوحة لحسين فوزى لرجل يصطاد سمكا، واحدة لعبد الهادى الجزار تمثل ذراعا عليها وشم أسد!!

ما الذى يريده منى الرئيس.. سوف أتأنى فى الرد عليه.. «هل سنتكلم فى حق الزملاء؟ لا .. لن أتكلم».. إنه يعرف كل شىء، مقاعد خالية لمجموعة من أطقم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الجلوس المنظمة.. لم يكن ثمة أحد فى البهو.. فقررت أن أدخن سيجارة.. وما كدت أضع السيجارة بين شفتى حتى فوجئت بيد ترتدى قفازا أبيض تقتحم السيجارة وتشعلها فكدت أقع من طولى وأنحنى، واحد آخر قدم لى مشروبا.. ولوحة أخرى لصلاح طاهر تمثل أجسادا غامضة طويلة تشبه القواقع.. أنا أديب ويجب ألا يستدرجنى أى أحد - مهما كان - بعيدا عن خط الأدب .. خط الفقر، فرصتك يا ابن الأفاعى.. وعليك أن تستغلها استغلالا كاملا..

وظللت أتجول فى البهو الواسع فى أنتظار أن أمثل بين يدى الرئيس.. دهمتنى قصيدة ساخرة لأحمد فؤاد نجم قالها فى حقه فأبعدتها عن ذهنى فى قوة.. هل هذا وقته؟ وجلست فى مقعد بعيد آخر وأشعلت سيجارة دون معونة من أحد.. ثم ظللت ألف بين جدران البهو.. صمت، صمت مرعب، ناعم ورقيق كأنه يمهد لأن تقتحم العفاريت المكان.. وظل الوقت يزحف بطيئا.. بطيئا.. ماذا سأكتب فى مذكراتى - بعد عمر طويل؟

وجلست مرة تاسعة أو عاشرة وتجاوزت الساعة الثالثة ظهر وبما أننى أعانى من ثلاثة: الجوع، والقلق، والوحدة!

فتحركت نحو الباب الذى دخلت منه وما كدت أصل إليه حتى وجدته قد انفتح - أعوذ بالله - ودخل منه رجل مهيب وهو يكاد ينحنى، ابتسمت له فى صعوبة وأفهمته ما هو فاهمه:

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الريس عاوزنى.. فظل الرجل المهيب مبتسما وأغلق خلفه الباب..

ملعون «أبو كافكا» هذا الكاتب التشيكى الألمانى.. الذى تزدحم قصصه بالكوابيس.. ولوحة أخرى لواحد لا أعرفه وفيها امرأة شديدة الجمال وقد..

- اتفضل.. فاضطربت..

سرت وراء رجل مهيب آخر مشدود القامة، والساعة قد تجاوزت الرابعة.. وإحساسى بالجوع كان طاغيا.. طرقة طويلة تطل على البحر وسلالم عريضة أفضت بى إلى باب ذى ستائر ثقيلة.. ما كدت أجتازه حتى فوجئت بنفسى فى شرفة واسعة جدا «تراس» وقد جلس السيد الرئيس فى مقعد ضخم فى منتصفها مرتديا جلبابه البلدى الأثير وعلى أكتافه عباءته الخفيفة البنية اللون، والبحر قد هدأ تاركا صفحته منبسطة تلامس خريف السماء!!

- ٥ -

وضعنى الرجل الذى كان يقودنى أمام الرئيس مباشرة.. وكان الرئيس منشغلا فى الاطلاع على أوراقه.. كنت مضطربا.. شديد الاضطراب عندما نظر من خلف نظارته إلىّ دون أن يترك الورق.. وفى فمه مبسم طويل فى نهايته سيجارة.. وكنت أتوقع أن أراه يدخن الغليون الذى كان موضوعا على مائدة صغيرة أمامه..

وفتحت فمى عن آخره مبتسما وألقيت بالتحية

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المضطربة على السيد الرئيس، الذى همهم وأشار لى بمبسم السيجارة أن أجلس فى المقعد المجاور، فدرت دورة كاملة من خلفه حتى أصل إلى المقعد حيث جلست على حافته!!

كانت هذه هى المرة الأولى التى أجالس فيها الرؤساء، وكانت المسافة بين جسدى ومسند المقعد بعيدة فارتأيت أن أستمر فى جلستى المتحفزة هذه من باب الأدب والامتثال!!

خلف السيد الرئيس من وجهه الورق وسألنى مبتسما وقد اعتدل بجسده فى المقعد:

- متى حضرت؟

- حوالى العاشرة..

- آه..!!

لم يقل أكثر من كلمة «آه» مضخمة بدخان كثيف له رائحة نفاذة أعرفها جيدا، ونظر إلى البحر ثم عاد إلى الورق المرفوع حاجبا وجهه.. هذا الورق الذى كان ينزله أحيانا حتى أرى عيونه الممعنة المصوبة نحوى، والذى كنت أتوقع أن يبدأ معى الكلام بعدها مباشرة.. لكن الورق يعود ليصبح حاجزا بينى وبينه.. ولم ألبث أن أحسست أنه يقرأ فى الورق ما يخصنى.. إن هذه العيون التى تعود وتخترق الحجب الورقية من خلف نظارته لابد أنها تقرأ شيئا يخصنى!

وظللت صامتا... أزاح السيد الرئيس الورق جانبا وكانت شواربه الضخمة قد تهدلت بعض الشىء عما

** معرفتي ** www.liilas.com/vb3 me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تعودنا أن نرى فيها من حدة وتشذيب وأمعن فى وجهى من وراء النظارة وقال:

- الصعيد بلد الشهامة..

- أشكرك يا سيدى الرئيس.. الشهامة لا وطن لها..

باب جميل للكلام، لكن السيد الرئيس عاد إلى الإمعان فى الورق ولا يصح لى أن أزيد أو أفتح أى كلام دون أن يأذن لى الرئيس.. وكان صوت البحر يأتى من بعيد محملا بالآمال الواسعة. وظللت على طرف المقعد الضخم غير قادر على الاسترخاء، وحينئذ جاءت القهوة. فنجانان كبيران لهما رائحة نفاذة.. وامتدت يد الرئيس فى هدوء إلى فنجانه، فانتظرت قليلا ثم لم يلبث أن ترك الورق جانبا فأحسست بخطر داهم!!

وعندما امتص السيد الرئيس الرشفة الأولى. ومصمص شفتيه مستملحا ومستعذبا مددت يدى إلى فنجانى فوجدتها قد اضطربت بما يعرض الفنجان للانقلاب.. «أعوذ بالله - انقلاب إيه وزفت إيه - هل هذا وقته»؟! فأعدت الفنجان إلى موقعه وظللت على طرف المقعد !!

- ٦ -

كانت الشمس قد سقطت فى الأفق منبئة عن وصول المساء وبدأ الليل يحط على كيانى، وأنا ما زلت جالسا على حافة مقعد ضخم، والسيد الرئيس أشار

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بيده وهو لا يزال ناظرا إلى البحر، هل أتكلم؟.. وإذا تكلمت ماذا أنوى أن أقول؟.. ولماذا لا أقف الآن وأدهمه بهاتين الذراعين الصعيدتين وأستولى على المقعد الذى يجلس عليه..

لكن كوبين من عصير البرتقال وضعتا أمامنا قادمتين من جوف سحيق غامض، كنت جائعا، ومصارينى تتصارع فى الجوف الخاوى محدثة أصواتا مرعبة.. أنا جائع يا سيادة الرئيس ودعنا من كل الشئون التى تشغلك وتشغلنى!!

لكن السيد الرئيس ظل ممعنا فى البحر الأسود المظلم وقد استرخى.. واكتشفت أن فنجان القهوة لا يزال كما هو. لكننى مددت يدى بقوة وتناولت كوب عصير البرتقال كى أسد به صراع المصارين.. وأحسست برغبتى الشديدة فى سيجارة.. وفى الذهاب إلى دورة المياه، وفى أداء الصلاة وفى الجرى وفى الصراخ لكنى ظللت صامتا!!

تمنيت أن يقوم السيد الرئيس من مقعده كى أخلو لنفسى خلوا حقيقيا.. لكن الرجل ظل صامدا، لماذا لم يقم لأداء الصلاة؟.. كان وجهه الغامض قد تشكل مع الضوء الخافت ليذيقنى مرارة لم أعهدها من قبل رغم كثرة المرارات التى مرت فى حياتى.. وعندما انحنى أحدهم على أذنه هامسا رفع عيونه إلى أعلى بشكل رأسى ثم قال:

- طيب..

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فـأيقنت أن أمـرا مما أرجـوه الآن سـوف يحـدث.. الأكل.. لم أكن مـشـغـولا بشىء سـوى الأكل.. فـمنذ أحقـاب طويلة أكلت مـرة فى بيتى وهأنذا أديب جائع فى حضرة رئيس هادئ صامت!!

وبالفعل جاءت من آخر الشـرفة الواسعـة عربة مما نراها فى الأفـلام تحـمل مـأكـولات بيـوت الأثرياء.. فأحـسست بحب جارف للسيد الرئيس هذا الذى نظر إلى الذى يدفع بالعـربة أمـامـه وأشـار إليـه بـأصـبـع مفرودة آمرا:

ـ تحت يا إسماعيل..

واستـدار إسمـاعيل بالعربة ذات المأكولات المغطاة.. وقبل أن يغيب بها.. صاح به السيد الرئيس:

ـ فى السينما أحسن!

وخبط بيده على مـسند مقعـده وقام نصف قـيام وسـألنى:

ـ مش فى السينما أحسن؟

ولم أعـرف بماذا أجـيب فـقط ابـتـسـامـة بلهـاء زخرفت بها وجهى وأنا أنظر للسيد الرئيس الذى قام وعـدل من جلبابه وعـباءتـه، فقـمت مـسـرعـا ووقـفت وسار الرئيس فسرت وراءه سعيدا!!

كانت قـاعـة السينما ذات مقاعـد مـحـدودة، جلس الرئيس وجـلست بجـواره، تركت بينـى وبينه مـقـعـدا.. لكنه أشار إلى المقعد الموجود بجواره مباشرة، ازدادت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

سعادتى وقررت أن أوزع - فى أول فرصة - ألف جنيه على الفقراء!!

لكنى حين هممت بالجلوس بجوار الرئيس فى انتظار أن أتفرج معه على الفيلم الذى ستسعدنى رؤيته بالتأكيد.. وفى انتظار هذه المأكولات التى سوف تزيد سعادتى بالفيلم أكثر.. دخل أحدهم بدون عربة الأكل.. واقترب من الرئيس هامسا فرفع وجهه إليه ثم رفع وجهه إلىّ وقال فى هدوء قاتل وعيونه مصوبة نحوى:

- فى سيارة خدمة نازلة القاهرة تحب تروّح فيها؟!!

وقبل أن أستوعب الجملة.. أو أن أقول شيئا أشار للرجل الممتثل آمرا:

- أيوه يا أحمد..

وقادنى الرجل بعد أن حييت السيد الرئيس طالبا من الله أن يطيل عمره..!!

- ٧ -

عندما انطلقت بى سيارة الرئاسة خارجة من استراحة السيد الرئيس، وبعد أن أدى لى الضابط المرافق الكثير من التحيات والابتسامات قلت للسائق فى أسى حقيقى:

- لو سمحت يا أسطى أى مطعم آخذ منه رغيفا وطعمية.. أو حتة جبنة!!

فنظر الطاقم المرافق لى وعادوا يحيوننى فى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

احترام، وظللت فى مقعدى صامتا.. حيث كنت أدعو الله فى سرى أن..

ولم أنم، وبدأت أفكر جادا فى اغتيال صديقى أستاذ الجامعة الذى له علاقة برجال السيد الرئيس!!

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الأتان

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

-١-

عندما تحققت أمنية صابر أبو مستجاب فى أن يصبح له بيت جديد خارج البلد، واجه مشكلة حمارتهم، نعم: حمارة وليس حمارا. فقد كانت آخر ما بقى له من أثر أبيه حين كان يطلق عليه «الأتان»، ولا نعرف حتى اليوم من أين حصل أبو صابر على كلمة الأتان الراقدة فى بطون المعاجم ودواوين شعر جرير والفرزدق والأخطل حينما كانوا يتعايرون ويتشاتمون ويصنعون هجاءهم من التعبير الأثير: يا ابن الأتان، ، ربما - هذا التعبير - جاءه من بواقى مجالس عبد العليم العمدة، والتى كان يتسيد فيها الشيخ راشد والشيخ على بما لديهما من علم قديم وغزير، وظلت الأتان قادرة على أداء ما يوكل إليها بعد رحيل أبى صابر لسنوات طويلة، ثم لم تلبث أن كبرت وعجزت عن العمل ثم بدأت تستكين نائمة داخل البيت القديم.

فهل من الحكمة أن يذهب صابر إلى بيته الجديد، الذى سوف تدخله الكهرباء والمياه المكررة، مصطحبا معه تلك الحمارة الجانحة الساقط رأسها بين

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كاهليها؟.. وبعد تفكير وتدبير رأى أن يترك الأتان مكومة فى موقعها، فسوف تلحقها رحمة الله قبل أن يتسلم المشترى البيت القديم، والله يرعى الجميع.

لكن المشترى الجديد للبيت القديم أبى أن يتسلم العقار إلا بعد إخلائه من الأتان المريضة النائمة، لو كانت بقرة لجاءها عشرة جزارين وباعوها لحما لمن يستعصى عليهم اللحم الطازج الصغير، ولو كانت بطة لحملها صابر تحت إبطه، ولو كانت .. لكن المشكلة الحادة انفكت وتفككت كما تنفك الحبال الملتوية، فلأن أحدا لم يكن يملك قلبا قاسيا يختصر به المسافة بين حياة الحمارة وموتها، فقد استعان صابر بخمسة رجال ليشدوا الأتان من رقبتها ومؤخرتها كى يخرجوها من البيت إلى عرض الطريق، حيث ناحية من الطريق يمكنها أن تنتظر نهاية أجلها. وظل الرجال يهابرون ويرفعون حتى كادت الأتان تقف، بل وقفت بالفعل على قدميها الأماميتين ثم الخلفيتين، وتحركت فى بطء عسير بين الأيدى الصلبة، وخرجت الحمارة من المنزل، لترى الشمس الغائبة عنها منذ سنوات طويلة، وعندما انتهى الرجال من إيداعها حوائط الشارع، لم تسقط الحمارة، ولم تنشل منهارة. بل تصلبت سيقانها القديمة، وبدأت تكمل الخطوات، خطوة مضطربة وراء خطوة ثقيلة، والأدهى من ذلك أنها سارت وراء صابر، والرجل مشدوه ينظر فى عجب، سارت فى وجل واضطراب حتى كادت تسقط، لكنها استمرت، وقاومت ليس السقوط فقط، بل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ونظرات صاحبها وأصدقائه، إيه.. إيه... وبدأت إيهات الرفاق تخرج صائحة مندهشة، فها هى الأتان تستعيد النشاط المفقود، وتسترد ربع العافية الذابلة، وتدهش بحركتها المتهاوية الرجال فيصيحون: إيه.. إيه، ويصفقون فى جلبة، ويصنعون هيصة تجمع المارة والعابرين، لكن الحمارة لم تلبث أن سقطت وسط الشارع تماما محدثة صوتا مخجلا.

- ٢ -

كان صابر أبو مستجاب يحكى الحكاية عندما كانت أخته الكبرى تعاون زوجته فى رص صحاف السمك أمامه على الطبلية فى مدخل الباب الجديد، فاجتاحت أهل البيت كلهم موجة مرح بدأوا خلالها يذكرون - أو يتذكرون - الطرائف الجميلة لوقائع الأتان المنقضية، فما رأوا من هذه الحمارة إلا كل جميل، والخير الذى تمتعوا به فى عصرها لن يتكرر، كل واحد سوف يقضى أجله، وبينى وبينك فلو كانت الأتان قد جاءت إلى البيت الجديد لتسببت فى مشاكل عديدة. فكل الذى استطاعوا اقتطاعه لحساب البهائم من مساحة هذا البيت مجرد غرفة فى المؤخرة، غرفة مزنوقة بين حوائط الأسمنت المسلح تقف فيها بقرة ووليدها، والمشكلة الدائمة أن البقرة نطاحة، أى ما تكاد ترى مخلوقا - وأحيانا من أصحابها - حتى تهاجمه فى ضراوة، وقد أنقذوا عجلها الصغير من عمليات نطح عدة مرات، ولما شب

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

العجل أصبح النطح تناطحا مثيرا للقلق، وقد شاع بين الناس ما تتصف به البقرة من شراسة، مما أدى إلى فشل بيعها أو التصرف فيها، وكان صابر قد انهمك فى تلقيم ولده الصغير قطعة سمك حينما أظلم مدخل الباب، نعم أظلم وكأن سحابة قد سدته، ونظر الرجل مستطلعا فإذا به يجد الأتان وقد وقفت على سيقانها الأربع المتصلبة، ورأسها المتساقط يكاد يلامس الأرض، وعيناها مصوبتان إلى صابر وعياله فى ذل واستكانة، ثم لم تلبث، وقبل أن يصيح صابر أو يندهش أو يلعن - أن سقطت داخل عتبة البيت الجديد، وهى تمخر مصدرة أصواتها المتألمة الخشنة من جميع فتحات جسدها، فالتاث البيت كله، فقد أدى سقوط الحمارة إلى احتكاك مروع يكاد يقلب التليفزيون من فوق تربيعة الخشب، الحمد لله، وقبل أن تنتهى الأفواه من صرخة الحمد لله كانت الحمارة قد قامت نصف قومة، أى رفعت رقبتها ورأسها وجزءا من صدرها، لترفع تربيعة الخشب والتليفزيون وتهبدهما فى الأرض، فانقطع المسلسل وانسكبت الموسيقى على الأرض، يا للمصيبة، وقام صابر مندفعا إلى عرق خشب ونزل به فى قسوة صارخة على رأس الحمارة، تلك التى كانت تنظر إليه فى امتثال وذل، ودون أية مقاومة غير تلك الارتعاشة التى تشمل الجسد المكوم، والصوت المتحشرج الذى يهز أى وجدان.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

- ٣ -

وهكذا قتل صابر أبو مستجاب الأتان الأثيرة القديمة فى مدخل الدار الجديدة، ووسط الفزع والوجل بدأ يتعاون مع زوجته وأخته الكبرى وبنت أخته الوسطى وثلاثة من كبار عياله فى رفع هذا الجسد الثخين من المدخل، لكن أخته الكبرى عادت إلى الوراء متراجعة وصرخت: بس.. بس، وشدت بذراعيها القويتين وصوتها الحاسم الآمر الجميع كى يتوقفوا عن الرفع، كانت قد أمعنت فى وجه الحمارة المغتالة ثم مؤخرتها، وصرخت فى نحيب ملتاع: الأتان تلد، نعم تلد، وهذا السيل من الدم فى مؤخرتها، يبرز بينه تكوين لا تخطئه عين أنثى فى الوجود..

.. لا إله إلا الله..

وظهر رأس الحمار الوليد من المؤخرة، وبدأ الجميع يجرون يمينا وشمالا بحثا عن قطع قماش وماء ساخن، وشخص مدرب فى توليد الحمير..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحزن فى المقاطع

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أحضر فورا،

وانتفضت تنفيذا لنص البرقية الشهرية، ثم انتفضت وأنا أنزل من القطار، لكن الذى لم يطف فى بالى أن أجده مقتولا، أن أجد أبى مقتولا، قادونى فور وصولى - فى صمت باك - فى ظلام أدغال مستنقعات - وسط عتمة روائح خبيثة - بين ارتعاشات تخرق بطن الغيب وتمسح به الأرض. قادونى إلى كومة بوص، وظل الدخان يتصاعد فى احتراق له صوت من بين نبات ذيل القط، ويتراقص حول بقع الضوء الطينية الكابية.

ضغطت القبيلة - فى انتخاب خشن - على رقبتى، فانغمست عيونى فى المنظر: كانت قطعة من اللحم الضخم المهترئ تتوسط كومة البوص، قطعة من اللحم المدمم العارئ، جذع أبى، بدون أبى، واشتد النواح وتقلصت عروقى، وتحشرج الحزن بين ضلوعى، لم استطع المقاومة فتهاويت، حملونى فوق الأكتاف وأعادونى إلى منزل القبيلة، وارونى ركنا فوق دكة جدى، ظللت ميتا أتسمع همسات القبيلة تتهمر وعيدا بالانتقام، وفى اليوم الثالث همست فى حزن: أود أو

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أعود إلى عملى، لاكوا اقتراحى فترة ومضغوه جيدا ثم تجشأوا كمدا بالموافقة.

صبيحة الحزن الرابع استقبلتنى شقتى مغبرة مردومة بالتراب الناعم، ارتميت وقتا على فراشى ثم لجأت إلى الشارع، اضطربت قليلا ثم اتصلت تليفونيا بعشيقتى، عاتبتها لأنها خلفت موعدين متتالين فأرضتنى بكلمات رقيقة، حاولت - هى - أن تعرف سبب ارتباكى لكنى لم أفصح، أثرت فيها كامن الرغبة فوافقت أن تحضر وإن كانت سوف تتأخر، فور ذلك بدأت أعد العدة كى ارتكب مع حبيبتى عشاء حزينا، كبدة مشوية - طحينة - بيرة، نظفت مترين من الشقة ورصصت المسائل وتناولت قرصا منشطا وتفاديت ترتيب أوراق وواريت الأسطوانات جانبا، واغتسلت ثم لم ألبث أن نمت.

استيقظت بعد أقل من ألف عام فهالنى أن الشمس لا تزال تداور غرفتى، ظللت أدور حول الأكل المغطى بفوطة بيضاء، ولازمنى الحزن ونظرت مرتين إلى ساحة الأكل فاشتعل ذيل القط دخانا خانقا، وتلوى بدن أبى فى البقدونس فازدادت رغبتى فى النحيب، أوقفت النحيب وانتصبت آذانى متتبعة وقع خطوات على السلم، لكن عشيقتى ما حضرت، لففت من جديد حول المائدة الصغيرة ومسحت دموعى، لكنى حبيبتى ماحضرت، جمعت جسدى من بين الفيافى الدموية وركنت إلى مقعد، ماحضرت، لجأت إلى الفراش وانزويت متقلبا، ما حضرت، تغطيت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وألقيت الغطاء جانبا فظلت الأدخنة المنبعثة شياطا من أمعاء أبى تمخر فى أنفى، لكن عشيقتى.. استويت على الفراش جالسا وقررت أن استعيد حبيبتى، كنت أيقنت فى الأيام الأخيرة أن احتمالات جفوة الهجر بدأت تكمن فى عيونها، كيف يتسنى لى أن أكون هذه المرة ـ هاجرا؟ وتحركت فى المكان المغبر ثم أشعلت سيجارتين، لن أقع فى مأزق المهجور مرة أخرى، أن أهجرها وأن أصب على فؤادها نار اللوعة، وعدت فجلست على طرف الفراش، وظل ظهر أبى المدمم مشتعلا، مزقوه، أين يتسنى لهم أن يجدوا الأشلاء، وسقطت السيجارة فى حجرى، إننى فى حاجة ضاغطة إليها، أن أضع رأسى على بطنها، أن أستحلب ثديها، أن أمعن طويلا فى وجهها، أن أطاردها فى غرفة النوم حتى تنفلت إلى مروج ذيل القط، أتابعها، أطاردها، أحتويها من بين الأدخنة والدم والشياط، وأعيدها، هنا على هذا الفراش، كى أقتلها فأحسست برغبة مرهقة فى النوم.

كان الدق على الباب ثقيلا ومظلما وغائرا فى الكهوف، أضأت، وفتحت، وجدت عامل البرقيات وقد تهدل فمه حرجا ـ أو ضيقا، ناولنى البرقية، وجدنا الكتف اليمنى والقدم اليسرى، ظل عامل البرقيات واقفا، أغلقت الباب، وتلمست الطريق إلى الفراش، اكتشفت ـ بعد إغراقى فى الطين ـ أن النور لا يزال مضاء، أن أقتلها، أن أحرق قلبها أولا ثم أقتلها، آه لو جاءت الآن، وتدفقت الرغبة سائلا منسابا فى كيانى.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عثرنا على الكوع والأنف:

كانت البرقية ملقاة أسفل باب المدخل، تمنيت لو أن حبيبتى تحضر الآن، لابد من الذهاب إلى العمل، كنت مرهقا وأنا أسحب بدنى من الحقول الشرسة، قال رئيسى فى العمل إنه يمكن أن أعود إلى المنزل كى أستريح، بكيت فكرر لى عزاءه، قدم لى الساعى برقيتى عزاء من أصدقاء بعيدين، طويت البرقيات وتراجعت إلى الخلف، قال رئيسى فى العمل: لا إله إلا الله، اجتاحتنى ضجة ناحبة تحمل فى أذرعها الطويلة المشاعل الطويلة لتقودنى إلى البدن، جذع أبى، غلبتنى الرغبة فى قتل حبيبتى على الرغبة في معاشرتها، وقفت فى البهو ولم أستطع تحريك جذعى لوجهة معينة، أدهشنى أن أتذكر صديقا ماتت أمه فى الصباح، فدفنها فى الظهيرة، وذهب إلى السينما مع خليلته فى المساء، وغالبنى ارتباك بالغ حينما فشلت فى التأكد أن هذا ما حدث يقينا، لكنى سرت هادئا فى الشارع، كانت عشيقتى قد تعلقت فى أذرع عدة أشخاص، لكنها كانت ترتدى وجوها مغيرة، هى المناورة المعهودة، لكنها ستحضر، بأى وجه ستحضر، وبأى سكين سأقتل، وكان الغبار قد حط على مائدة الأسى الكئيبة.

اليد اليمنى والركبة اليسرى:

من خلال استشارة ماكرة لعانس جاءت - لتعزيتى - فى رفقة صديق، أنه يمكن استبدال السكين بالزرنيخ، لكنها - بعد أن ربتت على كتفى عند الباب الخارجى،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أشارت أنه يمكن استبدال الزرنيخ بسم الفأر، بردت الكبدة المحمرة بالبقدونس وترسبت على الأطباق طبقة دهون، هى المرة الرابعة - والقاسية - التى تتركنى فيها الملعونة أمام مائدتى الباردة باردا، اجتاحنى شوق غامر إليها فاستبردت، وجلست أنصت للموسيقى، كان لابد للموسيقى أن تقوم بدورها منذ أمس أو أمس الأمس، فتحت ملفا للبرقيات وأزلت بعض الغبار واستقبلت الجيران وتناولت قرصا من عقار ممنوع، أن أقتلها بيدى أفضل، وظهرت صفحة الحوادث وقد حملت الخبر، الزرنيخ أفضل، لكنها ما حضرت، غيرت أكياس الوسائد وأطفأت الأنوار وخفضت من الأنغام المنسابة، الزرنيخ أولا ثم الإجهاز عليها بهاتين اليدين، وظلت يداى مرتفعتين أمام جسدى، فاشتعلت فى الحجرة أبخرة خانقة حول الجذع المدمم. وظل رجال القبيلة يجهشون بالبكاء حول جسدى.

الفخذ الأيسر كاملا:

أصاب الفساد المائدة الصغيرة وظل الجذع ملقى بين نباتات ذيل البقدونس، كان الغصن الأخضر يرسم خطوطا فوق بدن الطاسة، ستدور فى الشارع، أو تذهب إلى العمل، أو تلوذ بأحد المشارب، أو تفترس خيالاتك، أو تقرأ أشعارا، وبدأ الوخم يترسب دهونا على صدرى، سمعا وطاعة وعذرا يا مولاى، فقد جفت الثمار وخارت الجذوع وانهارت الأنغام، ولم يعد باقيا إلا كأس الليالى المدمرة، لم يكن عندى ثلج لكن زورى التهب متعة مع أولى قطرات الشراب الصعب،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ظللت فترة ـ فى الظلام ـ استحضر وجوه اللاتى نمت معهن، ثم وجوه بعض الممثلات المرغوبات لى، ثم طقطق الظلام وبدأت وجوه القوم الذين يهيمنون تأتى متوالية، رئيسى فى العمل وقد امتطى حبيبتى، وزير أو أثنان وقد تشبثا بجسد حيوانى، بدأت أستمتع بتنظيم الرؤى، أن أصف كل الوجوه التى ترسم حياتنا وتطل من الصحف والتليفزيون، بالزرنيخ أولا، لا، هذا بؤس خاص حتى فى التصور، لاحظت أن الوجوه التى وقفت صفا ـ كأنها فى حضرة مجلس نيابى ـ تعانى ملامح مشتركة، لا أجيد قراءة الملامح لكنها ـ على أية حال ـ تخلو من الذكاء، سم الفئران أهون فى الحصول عليه، دهمنى صوت مشاجرة وكمية من الألفاظ النابية، فاستيقظت فى اشمئناط وصممت أن أغادر الفراش، مددت ساقى بحثا عن شىء أرتديه للذهاب إلى الحمام، فتحت عيونى ونظرت إلى الأرض فدهمنى جذع مدمم وشعلات ذيل الفأر وسم دم الحيض وكانت الموسيقى قد استيقظت قبلى وبدأت تخفت وتنسحب معتذرة، أن أقتلها فى بيتها وسط أمها وأبيها، المهم الفعل دون الأمنيات.

أحضر فورا

كل الأجزاء اكتملت:

تركت عامل البرقيات واقفا وأغلقت الباب، ماذا يريد هذا العامل الخالى من الذوق؟ هل هو فرح؟ لقد كان يمد لى يدا بالبرقية، ويدا بإشارات الشكر، أحسست بتفتح فى مسام الفؤاد وأنا أجهز نفسى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

للسفر، إن اكتمال الأجزاء سوف يرفع عن الكاهل أعباء مرهقة، لن يكون هناك قطار قبل ساعتين، أفتك بها أولا ثم أسافر لدفن أجزاء أبى، ترقصت معها حول النار عاريين وتساقطنا أسفل ذيل القط مرهقين، قيل لحكيم ذات مساء: لماذا تصممون على تأثيم البشر؟ قال الحكيم محرجا: ماذا - إذن - سنفعل؟ وعاد فى نفس الأمسية ليمارس الذنوب الكبرى مع ابنتيه، وأثناء انهماك جدتى فى صلاتها غافلها كلب واختطف من المشنة رغيفا، قفزت جدتى من بين يدى الله وهرعت حول الكلب حتى أمسكته، عضته فى أذنه ولعنت أبا أصحابه مستعيدة الرغيف، وآبت لتكمل الصلاة، خبط الباب وأنا ارتدى قميص السفر، وجدت عامل البرقيات - يفتح فمه ضاحكا ساخرا، ناولنى البرقية.

وخط من الزرنيخ وسم الفأر والموسيقى والكبدة وحبيبتى والزهور ورئيسى فى العمل، وقفوا أمامى وقد مدوا لى أيديهم بالعزاء..

■ انتظر حتى نرسل إليك:

الأجزاء ليست لأبيك..

ومددت لهم يدى مصافحا وشاكرا..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المناورة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

نظر إليه «البقال» قال: أريد جبنا وزيتونا، ألقى إليه بالنقود تناولها «البقال» وتفحصها، ثم استدار إلى داخل المحل.

جبنة، وقطع البقال قطعة الجبن، وتحرك، ووضعها على كفة الميزان، تدارك ذبذبة الميزان فأضاف إليه قطعة جبن، زادت عن معدلها فمد السكين لينزع.. غير أنه ارتبك، فقد سقط الرجل مغشيا عليه.

❖ ❖ ❖ ❖

قفز البقال من فوق «البنك» ليصل إلى الجسد المسجى، تجمع الناس وبدأ ذوو التجارب يفضون بنصائحهم، كولونيا أو ماء بارد أو تهوية بقطع ورق مقوى، صرخ واحد: هاتوا الإسعاف، عاد البقال فقفز فوق «البنك» لداخل المحل، سحب التليفون وظل يحاول فى التليفون، وكل لحظة تمر تلقى بالعابرين فى حلقة التفرج على الجسد المسجى، وأخيرا ردت الإسعاف، وكان «البقال» يصرخ: رقم المحل، ورقم البطاقة الشخصية والعنوان، ويحلف لهم أن الرجل

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مـجـرد عـابر لا يـعرف عنه شيـئـا.. ثم.. مع تجـفـيف العرق أنبأ الجميع بأن عربة الإسعاف قادمة حالا.

تهـوية، مـاء بارد، وكـولونيـا، وقـام الرجل، قـام قـويا معـافى يكاد الا يكون صـاحب الجسـد المسـجى، نفض الغبـار عـن مـلابسـه، واعتـذر للجـميع، كـان وجـهـه ينز بالعـرق، أو بالخـجل، فـتـح له النـاس طـريقـا، ومـع السـلامـة، عـاد فـاعـتـذر، حـمـد النـاس رب القـدرة، بالسلامة، ورحل الرجل دون جبنة أو زيتون..

❖ ❖ ❖ ❖

الإسـعـاف سـوف تخـرب بيتك.. حـينئـذ انتبـه النـاس إلى المأزق الذى وقع فـيـه البـقـال جـروا يمـينا وجـروا يسـارا، وعـادوا ينفـضـون الأيدى، أيـن ذهب صـاحب الجسد المسجى؟ بعدها بدأت الأفكار المزعجة تغطى على جـو المكان، واحـد يحكى بأن عـربة إطفاء الحـريق جاءت إلـى بيته بعد أن أنطفـأ فغـرموه عشـرين جنيـها، وواحـد أخـذ ابنه إلى الطبيب بعـد أن يئس من وصـول الإسـعـاف، فـغـرمـوه عـشـرة، وواحـد أخطر عن شـجـار فـوصـل البـوليس بعـد فض المشـاجـرة فـاعـتـبـروه أبلغ كذبا، وواحد قضـى أسبوعا فى سـجن المدينة بتهمة إقـلاق السلطات لعـدم تقـديمه اللص المبلغ عنه، وعشـرات التـجـارب التى جعلت «البـقـال» يصـرخ: أين أنت يا صاحب الجسد المسجى؟

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

دائما، وفى مثل هذه الحالات يتقدم واحد بالحل الأمثل، أن يتصنع أحد الواقفين المرض، وينام أمام المحل، وسينجح رجال الإسعاف فى إنقاذه، ولن يحدث شيء، حل موفق، لماذا لا تتقدم أنت؟ فانتفض وريد الشهامة فى صاحب الحل الأمثل، وألقى بنفسه أمام المحل، وضحك الناس: وشكره الناس، وقفز صاحب المحل من فوق «البنك» ليكون بجانب ذى الجسد المسجى.

❖ ❖ ❖ ❖

جلجلت الإسعاف بجرسها المقلق فأثارت الغبار فى الشارع والارتعاش فى الناس، كتم العارفون الضحك وافتعلوا التشاغل بالنظر إلى الجسد المسجى.

وقفت عربة الإسعاف، ونزل منها رجلان باهتمام وحيوية، أمرا الناس بالابتعاد فتباطأوا فى الرجوع إلى الخلف.. تقدم رجلا الإسعاف إلى الجسد المسجى، حركا ذراعيه، ووضعا أذنيهما على التوالى فوق الصدر..

أعادا تحريك الذراعين..

فتح أحدهما عين الرجل..

انطلقت بعض الضحكات من الحلقات الملتفة..

صرخ أحد الرجلين فى الناس.. ثم أعلن..

الرجل مات..!!

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الأنيس

** معرفتي **

www.liilas.com/vb3

me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

-١٠-

كنت قد مررت - مع زوجتى - بالمراحل التاريخية المعهودة: مرحلة الفضائل، ثم الكواشف، ثم الإمعان، تمهيدا للدخول فى المرحلة الأخيرة التى لا يصح أن نعلن عن اسمها على أى إنسان.

ومرحلة الفضائل، أولى المراحل، هى تلك الفترة الزمنية الأثيرة، والتى تتفق فيها - دون كلام - مع المخلوق الذى سيصبح زوجتك بعد شهور أن تكونا فى أسعد حالاتكما: ماضيا وحاضرا ومستقبلا، أى أن أسرتيكما المجهولتين هما الأشهر وأسعد الأسر، وأكثرها نبلا ومساهمة فى صنع الفضائل من صدق وشهامة وشجاعة، ابتداء من هذا الذكاء الأبله الذى يبدو على وجه أخ خطيبتك، وانتهاء بهذه الشجاعة المترهلة التى تبدو فى ورم صغير بين عيون عمك، ومرورا بطيبة العمات، وكرم الخالات، وخفة دم المحالين إلى المعاش، ولماحية بنت عم تعلن دائما أنها تثق فيكما ثقة كاملة.

وبالطبع - وتنفيذا لنصوص حتمية التاريخ - فإن انتهاء نصف الأسبوع الأول من الزواج يضعك - أو

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يضعكما مباشرة أمام مرحلة الكواشف، تلك التى تتسم بالصراخ والصوت العالى لأن المرحلة السابقة لم تكن تتصف بما كنتما تشيعان أنها تتصف به، وكل لحظة فيها تمر تجر خلفها سلسلة الاكتشافات، والتى لا أحب أن أكون متشائما فأطلق عليها الفواجع، والتى تؤدى إلى أخطر المراحل فى الحياة الزوجية، وهى الإمعان.

وبعد هذه المقدمة الضرورية أود أن أشير إلى أن صديقا اكتشف أن اللغة العربية تخلو من تعبير الإمعان أو التمعن، أى لا إمعان نظر فى لغتنا، إنما الصحيح هو إنعام النظر، وهذه ثمرة من عصر الكواشف المشار إليه والذى يعتمد فى عنصر من عناصره على اختفاء ذاتها.

كنت أمر بمرحلة الإنعام «أنعام النظر» فى حياتنا الزوجية، إنعام فى أصهارى، فى حركتهم ووظائفهم وهواياتهم ومشاعرهم التى أدت - فى النهاية - إلى الاقتران بواحدة من سلالتهم، وتكون السلالة، أقصد زوجتى، قد انتهت فى هذه اللحظة من إغماض عيونها بعد استمتاعها بفترة مركزة من إنعام مماثل، وحيث يبدأ الاشمئناط فيهبط من الرموش إلى شفتيها فى هذا الوقت بالذات، الممتع ذهنيا، قالت زوجتى إن أخاها طلبنى مرات، أى أخ منهم؟ الأستاذ عباس الذى لم أره طوال سنوات خطبتنا سوى ثلاث مرات؟

قالت: لا، الأستاذ عباس هو الذى ساهم معك فى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تكاليف سرادق عزاء المرحوم عمك، آه الأستاذ عباس، وتذكرته فورا بوجهه الصبوح القادم من «عصور الفضائل» مهذب دمث، يعمل كاتبا لدى أحد المحامين، ولذا يطلقون عليه كثيرا ـ فى البيت ـ الأستاذ، وفى حالات قانونية «الميتر» ويميل أصهارى لحجب كونه كاتب محام حتى لا تؤثر فى قيمته الصور غير المشرفة التى أشاعها الممثلون لمثله على المسرح وفى التليفزيون، وأحسن لقب محبب له «إخصائى إجراءات قانونية» وماذا يريد الأستاذ عباس؟ لم ترد زوجتى مباشرة، إنما أنعمت النظر فى وجهى وقالت بثقة: لا أعرف، عموما هو سيسافر، يسافر؟ إلى أين؟ لم تقطع زوجتى إنعامها فى وجهى قاصدة تجريدى من صمودى فى السؤال وهمست: مسافر أستراليا.

-٢-

بينما كنت أحاول الاتصال تليفونيا بالأستاذ عباس، أى فى .... فى التصدى لإنعام نظرات زوجتى فى وجهى، جاء يشر العرق من وجهه وقد احتضن بين يديه صندوقا، آه تليفزيون ٢٦، فيديو ٩ أنظمة، كان عباس ـ الأستاذ ـ ضاحك السن «وهى صفة مشتركة بينه وين أخته حبيبتى فيها فى عصر الفضائل، ويبدو أنها اختطفت من وجهها أخيرا» أنزلت من بين أحضانه الصندوق، وأخذته فى أحضانى، ووقفت أخته ـ السيدة زوجتى ـ شديدة السعادة بحضوره، وتعاونا جميعا لفتح الصندوق الضخم، فأخرج الأستاذ منه وبحذر وعطف، سلحفاة، ضخمة ذات صدفة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

عظيمة وضخمة، وما كادت تستقر على الأرض حتى أخرجت رأسها من صدفتها فانتشر فى كيانى فزع ورهبة.

-٣-

الأستاذ عباس مسافر إلى استراليا، ولا يعرف إن كان سيوفق للاستمرار فى العمل بمطار ملبورن أو داروين، ولأن بيت الأسرة - العامر - سيعرض السلحفاة للخطر، فقد أحضرها لتعيش معنا، انظر، إنها طيبة لطيفة غير مؤذية، انظر إنها تنظر إليك، نعم تنعم النظر فيك لأنها ذكية وتعرف أنك صاحب البيت، انظر - واستمر الأستاذ عباس - إنها تتحرك فى هدوء دون ضجيج، وأخذنى بالأحضان وأضاف، سأسافر آخر النهار إلى بومباى، وآخر النهار الثانى إلى كانبرا، ثم إلى .. كان مرحا سعيدا، وكانت السلحفاة تتحرك فى بطء عجوز لتتسل أسفل الأريكة، وكنت أنعم النظر فى درقتها الحجرية الضخمة، وما كاد أخوها يغلق الباب خلفه حتى اجتاحتنى رغبة شديدة فى أن أقطع وريد يدى تمهيدا لأصبح ضحية لأصهارى، غير أن عقلى عاد إلى صفائه بسرعة، أعرف أناسا وأسمع عن ناس يقتنون القطط أو الكلاب أو القرود أو الخيول أو طوابع البريد، أو المراسلة، أو العصافير، أو الزهور، أو أغطية الرأس، أو الملابس التاريخية، لكنى ولأول مرة أكتشف من يقتنون السلاحف، وأن تكون الممارسة الأولى لاقتنائى هى: سلحفاة بالغة الضخامة تمعن النظر فى وجهى.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

- ٤ -

بعد أخذ ورد وصراخ وحوار مع زوجتى، جلست أحتسى الشاى والسلحفاة قد تكومت بجوار دولاب الفضيات، كانت ساكنة وكنت مهزوما، وبعد دوام إمعان - أقصد إنعام نظر - قلت: هى فى النهاية حيوان مغلوب على أمره لم يؤذ أحدا ولا يصح أن تؤذيه، وضعت لها زوجتى طبق ماء، وأفرغت أمامها جزءا من حبوب تركت فى المياه حتى كادت تنبت، كان أخوها قد أحضرها فى لفاقة صندوق السلحفاة، وتذكرت أن الأستاذ عباس قال شيئا عن طريق تخلصها من الفضلات، فلما أثرت هذه النقطة مع زوجتى طلبت منى ألا أزعج نفسى كثيرا بهذه الأمور، فقررت ألا أزعج نفسى فعلا، فتحركت السلحفاة من مكانها ثم جاءت إلى مكانى ودخلت بدرقتها العظيمة بين أقدامى، وقضيت وقتا طويلا أداورها، أمد يدى إليها لتخرج رأسها الثعبانى من مكمنه وتداعبنى، فأخذت زوجتى تقص لى تاريخ أسرتها فى اقتناء الأشياء الثمينة، وهى نقطة لم يثرها أحد أو خلال الأحقاب الماضية مع أصهارى، وطاف فى ذهنى أن أقص لها تاريخ أسرتى فى مثل هذه الأمور، لكن عقلى تصفح، وأصبح خاويا.

عندما توافد الأصدقاء والمعارف علينا كان يجب علىّ أن أستعد لأى حوار، اشتريت كتابا عن الزواحف يتضمن ثلاثة فصول عن الثعابين وثلاثة فصول عن التماسيح، وفصلين عن الورل والسحالى، وفصلا واحدا عن السلاحف بنوعيها: الترسة البحرية

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

والسلحفاة البرية، وآه يا أصدقائى فإن السلاحف ـ ونحن نشرب الشاى ـ صنف من الحيوانات الزاحفة، توجد عدة أنوع منها فى كل القارات، ويؤكل لحمها وبيضها، وأشهرها ـ ونحن نحتسى القهوة ـ ما يعيش فى الإكوادور، ولها فكان قويان شديدان عديما الأسنان، وتغطى ظهرها صدفة ـ انظروا ـ من الصفائح العظيمة، والرؤوس القرنية، واسمها العلمى كارينا كاريتا، وأشهر مواقعها. ونحن نلعب الورق ـ صراعها مع التماسيح وذئاب السواحل، والسلحفاة يا أصدقائى تميل إلى الهدوء والاستكانة وإنعام النظر، وتمر الشهور، وكل شهر يحطم ظهر الشهر التالى، والسلاحف ـ أيها الناس ـ تزن فى أحيان كثيرة ألف رطل، ولها رائحة نفاذة تضيع مع بعدها عن المياه. ويمكن للسلحفاة أن، وأن دق الباب بعنف، وحينما فتحت الباب وجدت زوجتى تصطحب رجلين، وصرخت: ما هى، وهرع الرجلان إلى السلحفاة يرفعانها فى أحضانهما، وكانت زوجتى تنظر إلىّ فى تنمر وتحد، فظللت واقفا أمعن ـ أقصد «أنعم» متوسلا ـ أن يتركا السلحفاة، لكن زوجتى صممت، فجلست فى مقعد امتلأ بحبوب مبتلة بالماء حتى كادت تنبت.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

اعترافات جنين

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أعـرف أن معظـم من قـرأ كـلامى الآن ندم مـرتين، مـرة لأنه خرج، ومـرة لأنه لا يسـتطيع أن يعود، أمـا أنا، فى دفئى الرحب الواسـع، فى موقعى من العالم، فإننى - وعذرا - أسـخر بكم، أو منكم، فكل مـا يحتويه القـصر الذى أكـمـن داخله، يعـمل لصـالحى، وكل المرافق التى تحـوطنى لا عـمل لهـا سـوى خـدمتى، فـى الوقت الذى تبـحـثون فـى الشـوارع عن أنابيب البـوتاجـاز، وتشـتكون من انقطـاع الميـاه، ومن صـعـوبـة الحـصـول على الخـبـز واللبن والسـكر والشـاى والمشـروبات، أى مـهـزلـة يمكن أن تفتك بالفرد أكثـر من استـهـلاكه حياته «المحـدودة» بحثا عن هذه الأشياء.

لكننى - وأنا اسـترخى الآن متـأمـلا - أحس باندفـاع تيـار الغـذاء الصـافى من الحـبل السـرى إلى جـوفى، لا عـوائق، لا سـيـارات تقطعـه، ولا مخـرب يعـبث فـيـه، ولا تاجـر غـشـاشـا يضـيـف الشـوائب إلى مـحـتـوياته، إنى أتغـذى بخـلاصـة نقـيـة، تسـرى فـى كـيـانى، وتمـنحـنى الثقة، والتفاؤل.

لكن أمـورا عـجـيبة، ومـضحـكة، تحدث حولى (ليس

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ما يدور فى أذهانكم المظلمة التى أفسدت بالتلوث)، فأنا ـ ككائن يمارس حياته ـ استخدم حقى فى التقلب، والرفس، والركل، فالعالم الذى أعيش فيه يبيح لى أن اتحرك كما أريد، لكن المضحك أننى، عندما أركل يمينا: يأتيى صياح مدهش من الخارج يعلن أنى ولد، وعندما أرفس يسارا، يخفت الصياح ويتمتم: بنت، وأسمع صوتا (من المؤكد أنه صوت أمى) يقو ل فى إيمان: كل الذى يأتى به الله هو خير، وأنا شخصيا لا أهتم بكونى: ذكرا أو أنثى، ذلك لأن اهتمامكم بذلك يرجع إلى خيوط العنكبوت التى تلتف حول أدمغتكم، ولذا فإنى كثيرا ما أتقلب وأركل فى الجدران يمينا ويسارا، ليصاب الجميع بالاضطراب.

من الأخلاق الفاضلة ألا أذكر كل شىء يضايقنى، رغم أنى عصبى المزاج، ولولا أن توصيلات الغذاء والهواء إلى جسدى سليمة، وجميع مصافيها (الفلتر) شديدة الدقة فى تسريب الغذاء والهواء النقى إلى، لحدثت كارثة، ففى الأسبوع الماضى كاد الحبل السرى ينفجر بسبب اكتظاظه بمواد لا أرغب فى التعامل معها، وقد حالت المصافى دون وصولها إلى، قيل إنها كتل من الدهون، وقيل إنها قطع من الألياف، وقيل إنها كمية من البهريز، وأنا أعلم أن الحياة فى الخارج ينتابها الحمق، والحمق يساعد على الالتهام، والالتهام صفة حيوانية.

أثناء الليل، أى بعد أن تنغلق جميع منافذ الضجيج،

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

وتهدأ الحركة أحاول أن أرتب أفكارى بعيدا عن الاضطراب والتحرك، وما أكاد أمتص دفعة الغذاء الأولى، حتى تبدأ الضغوط، والتقلب، وأصاب بالارتباك، وأكاد أوقن أن الزلازل دهمت المكان، ولولا الحماية الإلهية التى تحوطنى، والمتمثلة فى الجدران الطرية الناعمة، لقررت الخروج، فالمجازفة بالخروج إليكم أرحم ألف مرة مما أتعرض له، غير أن يقينى يساعدنى على الصبر، فالأمر مؤقت، إذ قد تكون أمى قد أصيبت بمغص، أو رغبة فى الرقص، أو رغبة فى التشاجر، وينتهى الأمر دائما إلى هذا الهدوء الليلى العظيم الذى أبحث عنه، وحينئذ أبدأ فى السكون والتفكير، وامتصاص الدفعة الثانية من الغذاء. لقد جابهنى اكتشاف غريب، فكل ما حولى دائرى، يستدير ويلتف: حنان دائرى، وصمت دائرى، وجدران دائرية، فقررت أن أعلنها صريحة: الدنيا كروية، هى الشكل الهندسى الوحيد القابل لتحمل الضغوط والتقلب والانبعاج!

وما كدت أصل إلى هذا الاكتشاف الرائع، حتى توالت الاكتشافات: الحبل السرى بدأ يغلظ ويصبح خشنا، أطراف أناملى بدأت تسمك وتصبح خشنة، رأسى تبلد وعلته ألياف ناعمة وبدأ الجلد يصبح خشنا، آه... ما هذه الخشونة كلها؟ وجلست - مقلوبا - أفكر، كان رأسى مرتاحا فى الأسف، حينما أحسست بأمى تصرخ .. وتصرخ، صرخات خشنة أيضا.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فى ذلك الصباح المرعب، دمر الآخرون وسائل غذائى وتنفسى، وامتدت أيديهم إلى وجهى، ورقبتى، وبدأ الدم يلتف حولى، ويضغط الأحمر، الأحمر المسطح، لا شىء دائريا، عالمى ينشرخ، وبدأ النور يعم المكان، فقد كنت مسحوبا إلى العالم المسطح الملىء بالكائنات الطولية المسطحة.

لقد فقدت استدارتى، وبدأت أتمدد، وأصرخ، فامتدت الأيدى إلى جسدى ولفته بالأغطية الخشنة.

وكان الحمقى يضحكون!!

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يوم للذبح

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قلت لزوجتى: مرة ثانية - وأخيرة - السم لا يصلح، لماذا؟ لأن عملية التسميم خارج نطاق المسألة، فالذى أعرفه - يا بنت الناس - أن الذبح هو الوحيد الذى يخضع لهذا الناموس، أعادت زوجتى السم إلى رف الصيدلية المنزلية واتجهت إلى المطبخ لتطمئن على السكين، كان الوقت ملائما للابتسام، قرأت جزءا من كتاب سالينغر عن حرب الخليج، ومقاطع شعر مترجمة لشاعر يونانى عاش فى مصر أو شاعر مصرى زار إسرائيل، وراعنى أن آثارا دقيقة ومتحركة ظهرت على سطح البسكويت، وأن صوت النباح الجميل بدأ يتلاشى وأن الليل تأخر طويلا فى مداهمة النهار، وكان الجو لا يزال حارا، فقررت أن أنام، غير أنى خشيت أن تنام زوجتى كذلك، فظللت مستيقظا طوال ذاك النهار.

حاولت استعادة نشاطى وحركت دماغى فى كل الاتجاهات كى يستعيد عقلى كفاءته، كان العالم يهتز حولى فى سعادة، وفى الوقت المناسب، وكما توقعت تماما، كان حسين البلتاجى يقف على باب الشقة، يستأذن فى المثول.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

لم يكن حسين البلتاجى طبيبا فقط بل أديب يكتب القصة ويتذوق الشعر أحيانا، كما أن خطه الجميل منمق ساعده أن يكون كاتبا عموميا ناجحا، وأن يكون رجلا عائليا فاشلا، وهو الوحيد الذى أعتز به من دون غيره من كل الأدباء، والكتبة العموميين، لذا كنت شديد السعادة حينما عرفت بخبر قدومه وانتابتنى حالة من الفرح الجذل جعلتنى أحتضنه فى شوق، وأجلسه على أحسن مقعد فى البيت.

كان حسين البلتاجى قد أحضر معه علبة ملفوفة بأناقة، سلمها إلى زوجتى بمجرد أن جلس وقال: هدية حلوى للصغيرة سوسن، ثم أخرج من حقيبة يد زجاجة من المحلى، قال: وهذه لك، اعتذرت قلت إننى قد توقفت عن الشراب من زمن، قلت له: اشربها أنت، قال سوف نشربها معا، دست على كفه المتشبثة بالزجاجة وصحت فيه مبتسما وحاسما: فعلا أنا توقفت عن ذلك، وقد ساعدنى الله على التوبة النهائية، فأحسست بأنه أحبط، وأن الأمر يسير فى غير ما يحب،، قلت: عليك أن تأكل وأن تشرب كما تريد، مسح العرق بمنديله وأخذ نفسا عميقا،

كانت الحرارة قد خفتت قليلا، صحت على زوجتى - وأنا أحيط البلتاجى بحنانى وكرمى: نأكل أولا؟ جاء صوت زوجتى من الداخل: كما تحبون: بعد دقائق أحضرت صينية عليها ثلاثة أو أربعة سكاكين، كانت السكاكين تعكس الضوء فى عيوننا فتزداد بهجة، لكنى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

لاحظت ـ مع ذلك ـ أثر البقع من الصدأ، فقررت أن أعاتب زوجتى، ثم لم ألبث أن طلبت منها رباطا ضاغطا، لكن حسين البلتاجى رفض، قال: إننى مستعد هكذا، إذ إننى لم أعد أطيق الأربطة، قلت له: إن الألم سيدفعه إلى تصرفات غير مناسبة، قال: هذا كان زمان، أما الآن فلن أفعل شيئا، فطلبت منه أن يحكى حكايته من أولها، وقلت له إن ذلك يساعدنى على أداء المهمة، فكاد يبكى، ثم بدأ يحكى حكايته.

قلت له استرح، فألقى بجسده الضخم إلى مسند المقعد، وطلب منى أن أسمح له بتناول كأس واحدة، فاعتذرت، صاحت زوجتى من الداخل أن أمنحه قليلا من السم، لكنى رفضت محتدا، سكتت زوجتى لكنى أحسست أنها تتهمنى بقسوة القلب.

وكان حسين البلتاجى لا يزال مسترخيا، أمرته أن يتوقف عن التدخين، قال: حتى التدخين؟ قلت: التدخين، وكانت زوجتى جاءت بملاءة قديمة وألقتها على الأرض حماية للسجادة والبلاط، فقمت أنا ودرت حول حسين البلتاجى كى أطمئن على سلامة جلسته، وعدلت من وضع يديه وذراعيه، ثم أمسكت بالسكين الكبرى وحككتها بالسكين الصغرى كى تصبح أكثر حدة، بسم الله، الله أكبر، والتف ذراعى حول رقبة حسين البلتاجى، صرخ: آه. صحت فيه: أنا لم أفعل شيئا، تحمل يا رجل وضغطت بزندى حول رقبته، وارتفعت ذراعى اليمنى بالسكين الكبيرة، ثم اندفعت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

إلى رقبة حسين البلتاجى: بسم الله، الله أكبر، ونفر الدم فى مكمن السكين فى نقاط صغيرة ضئيلة، ثم اندفع إلى أعلى فى نافورة جميلة بشعة، حركت السكين التى تمزق اللحم أثناء إخراجها وعدت إلى الرقبة المكتنزة أعالجها، قال حسين البلتاجى، آى، آى، ثم فتح عينيه عن آخرها، وبعدها تساقط رأسه إلى جانبه مستندا إلى كتفه.

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وجلست مرهقا على مقعد وبدأت أصيح فى زوجتى أن تحضر لتنظيف كل هذا الدم، وعدت إلى الجسد الثقيل أحاول تحريكه من فوق الكرسى.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المجادلة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

١ـ وجهها مستدير كالقمر:

أشارت إلى المقعد بعيونها رفعت النظارة من فوق العيون فازدادت نضارة، قالت إنها تود أن تستمر فى محاولاتها، كنت ما أزال واقفا، وقالت إن عائلتى ـ كل عائلتى ـ لا تمثل لها تهديدا ذا شأن، وإنها مؤمنة بالله، والمكتوب لا دخل لها فيه، وقالت: إن عائلتى ـ كل عائلتى ـ لا يجوز لهم أن يفعلوا ذلك، وفتحت عيونها عن آخرها وظلت ممعنة فى عيونى، فاقتربت من المقعد وجلست صامتا.

٢ـ واكتناز الشفتين يغرى بالجدل:

قلت لها: اسمحى لى أن أوضح لك بعض الأمور، أسبلت رموشها وكادت تصيح: كل الأمور واضحة، وقالت: يعترضون طريق زوجى ويلقون بالقاذورات على باب بيتى وصمتت قليلا فى صبر ثم علا صوتها: ويضعون السم للكلب. ثم أردفت: وأزواج الحمام ـ كلها ولفوها على إناث حمامهم، وقالت: والخادمة الصغيرة يستدرجونها للعمل عندهم، وقالت: أرجو أن تفسر لى لماذا بائعة الجبن والزبد توقفت عن الحضور، أشرت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

إليها بكفى معترضا، قلت لا يمكن أن نفعل ذلك، وقلت: أول مرة أعرف أو أسمع عن ذلك، وقلت: كل الذى أعرفه أن السيد زوجها سافر بعيدا، كما يسافر معظم الأزواج هذه الأيام، ضحكت فى غيظ وأشارت بيدها وكأنها تطرد محاولتى أن أستمر، كدت أضطرب، فقالت: هذا عن زوجى، فماذا عن الكلب والقاذورات، والخادمة وذكور الحمام وبائعة الجبن والزبد؟

٣ـ وخصلات شعرها القديم تتثاءب:

اضطررت أن أقف لأوضح لها اعتراضى أو عدم اقتناعى، كانت لا تزال واقفة، وكنت ما أزال جالسا. غمرنا الصمت فبدأ المكان قبو فرن أو معمل بيض حاولت أن أتكلم فجاء صوتى من قاع مظلم، قلت لهاـ ما دام الأمر كذلك ـ فهناك كلام حول... فرفعت حاجبها فى تنمر وتركت ابتسامة غاضبة مندهشة مضغوطة فى ركن شفتها وهزت جسدها وسألتنى: كلام حول ماذا؟ وأردفت فى غضب مكتوم: حول ماذا هذا الكلام؟ نعجتكم نفقت وماتت على شط ترعة بعيدة.

وبدأت تعد وتحصى على اصابع يدها: وعريس ابنتكم كان لصا قبل أن يكون عريسا، وتم القبض عليه فى محافظة أخرى، وعيون عمتك تعالج من الرمد من ثلاثين عاما، وفقدت بصرها قبل أن يراها أى طبيب، وصراف الحكومة طول عمره يحجز عليكم لعدم وفائكم بأموال الحكومة، وأبوك نفسه.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قلت أرجوك لا داعى، أرجوك، فأمعنت فى وجهى وأمعنت فى وجهها، حينئذ دارت حول نفسها وهمست: قهوة أو شاى؟ كنت غاضبا فالتويت بعيدا عنها.

نادت بصوت واضح: شاى يا محمود، ثم قالت: لم أكن أود.. وتوقفت فنظرت فى وجهها، وهمست: أنت تعرف كم.. وصمتت، حينئذ أحسست برغبة فى البكاء، فأبعدت وجهى مرة أخرى، كى لا ترانى، وصاحت ـ فى حزم ـ هات جبنة وزبدة وبيضا مع الشاى، وقالت: بسرعة يا محمود، وقالت: هذا الصباح شديد الحرارة، فسعيت إلى مقعد لأعاود الجلوس.

وجهها مستدير كالقمر، واكتناز شفتيها يغرى بالجدل، وخصلات شعرها القديم تتثاءب، والولد جاء بصينية عليها «براد» الشاى وقطع من الخبز والجبن والزبد، وكان الصباح حارا، والحزن ضاغطا، وأصوات الكلاب تأتى من الخارج ممتزجة بهديل الحمام ونداءات الباعة.

ورغبة سافرة تدهمنى: أن أتمدد على الأرض من الإرهاق..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الخروج

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ظللت واثقا أن بين جريد النخيل متسعا لى، وأن بروز سباطة البلح إشارة أن أتسلق، كان لونها الأحمر القانى قد بدأ يسود، كما أن بروز بلحها مخترقا سل وأشواك السعف، يتحدى خطوتى الكليلة أسفلها، أن أتسلق وأن أشد ظهرى وأن أخرج - أصلا - من بين طيات غطاء الحمى: اشرب يا محمد، وأحاول أن أفتح فمى الجاف المرير كى أعاود، وتتأوه أمى فتنتحب أختى - أمى تعود فتنهرها، ولم يكن فى الغرفة كلها سوى كوة علوية تنغلق شتاء ببقايا أوراق أكياس الأسمدة، وما يكاد الشتاء يتراجع تحت وطأة أول فحيح للربيع حتى تتساقط أوراق النافذة، خذ يا ابنى ربنا إن شاء الله يشفيك، لماذا لم تقل ربنا يشفيك مباشرة، إن شاء الله لا بد منها، هذا البيت غارق فى خشية الله، وأبى - من ليلتين ثلاث - زمجر ضد أمى فشكته إلى الله قبل أن تدهمى الحمى بنصف يوم، وأن يظل سقف الغرفة ضاغطا حتى حلقومى، من أين؟ الليمون رخيص لكنه يظل ثمينا إذا طلبه الفقراء، نبيع نصف التموين الرخيص بسعر

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مناسب كى نحصل على النصف الثانى مجانا، ثم عاد أبى مزمجرا وعادت أمى لتشكوه إلى الله. خرابيش الحائط - تحت الضوء الكليل - أشباح ذات مناقير أنياب وأظافر ومخالب وبنادق وفؤوس. اشرب ليمونا - كان - أو حنظلا، بالشفاء بإذن الله، وقرأ الشيخ موسى آيات عديدة فوق رأسى، استزادته أمى كى تتأكد نجاتى قالت له - فى عتاب أو لوم - لا تفعل مثل المرة الماضية، لا تقرأ بسرعة، ولا تغادره دون الدعاء له بالشفاء، دعا لى الشيخ موسى وظل يدعك يده الخشنة تحت رقبتى وبالذات أبو قردان - هذا الأبيض الجميل الذى يتسامى فى السماء وحده، ويحط بقعة من الرحمة البيضاء بين الأخضر، وأن أتسلق النخلة حتى أدهم قلبها وأتحسس أثداءها. قال أبى للشيخ موسى: ارفع صوتك، محمد زى ابنك، جثا الشيخ موسى ورفع ذراعيه طالبا بصوت مغتاظ وكليل - أن تتشفع لى الملائكة والرسل كى يشفينى الله، وقرأ آيات أخرى، آمين، ثم مسح بكفيه فوق وجهه، ثم فوق وجهى وهمس لأبى: تعال. شد الشيخ موسى كف أبى وفردها ثم مدها إلى رقبتى وكاد يصرخ: مبسوط أبو محمد. انهمرت أمى فى البكاء فأمسك الشيخ موسى بيديها الاثنتين ثم نهرها، وشد كفيها فى عنف ولطمهما فى وجهى وبدأ يدعو الله من جديد، بدأت خرابيش الحائط تتراجع وتفتح ثغرة للغربان، أيقنت أن الأنهار تنبع من الحوائط وأن أمى تتمتم فى زهق

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كلاما لا يخصنى، ليس دعوة وليس توسلا، خرابيش كلام لاعن ومتكلس كالطوب، ظهرت أفيال على الحائط وبدأت تقترب منى، ازددت عرقا وظلت الكوة المفتوحة تعبث بورقها الممزق، شعرت بالإعياء.

كانت رائحتى كريهة، استيقظت دفعة واحدة فأحسست بأن الحائط سحب الأفيال إلى الخلف، كنت وحيدا، وكان الغطاء قد سقط من فوق جسدى، تحركت من الفراش وفتحت الباب، وجدت جذع النخلة أمامى، ظللت واثقا أن بين جريد النخل متسعا لى، وأن بروز سباطة البلح إشارة أن أتسلق. الوقت.. ظلام.. ظلام.. عتمة. حبشية سوداء كالأفيال. بروز سباطة البلح إشارة أن أتسلق، وبدأت أتسلق الجذع المظلم، وحامت حولى أسراب أبى قردان صادحة صارخة، كان لونها أبيض، وعندما تلمست أولى جريدات النخلة أصبح لونها أحمر، مددت يدى واستندت إلى الجريدات وبدأت أتوغل فى عمق النخلة، لونها الأحمر يسودّ، تلمست أناملى أطراف البساطة وشددّت البلحة، وبدأت تتحسسها، سحبت البلحة وقرّبتها من فمى، ظلت شفتاى تقتربان منها حتى انقبضتا ثم بدأت تستحلب، وبدأ ثدى النخلة يستجيب، ويفرز عصارته البيضاء المدرارة فى فمى، وعندما اقتربت منى الطيور البيضاء سعيدة: صرخت أختى وبدأت تنتحب معلنة أمى: محمد مات أخويا مات..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الخطوبة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

«إلى من سبقونى فى كتابة هذه القصة، وخصوصا أنطون تشيكوف وبهاء طاهر»

رتبت نفسى وأعدت صياغة ألوانها، فاللحظات القادمة اختبار حاسم، قلت لحبيبتى: لو أن أباك حاول أن يلاعبنى فسوف أقلبها فوق دماغه وأحملك بين أحضانى واتركه فاقد الوعى، ومن قطار إلى سيارة ثم إلى باب أهل حبيبتى فى القصص الأخرى يقوم الأب بمحاورة ذكية يكشف فيها الحال المتردية لأمثالى سوء سمعة الأسرة والمواقف الرديئة التى عاشها أهلى لكنى - ياعمى المرتقب - جئتك عاريا من الأهل ابتداء من عتبة المسجد التى وجدونى وليدا باكيا بجانبها فى الفجر، ومرورا بالملجأ الذى قضيت فيه ربع القرن الأول من حياتى حتى المدرسة الابتدائية التى عملت فيها معلما للموسيقى وأحيانا مدربا رياضيا، وحبيبتى تعرف كل ذلك عنى، ولابد أنها نقلته إليك. وانفتح الباب على ردهة واسعة ووجه بشوش لسيدة مرحبة، وملامح كثيرة من وجه حبيبتى تسللت إلى الوجه البشوش فأيقنت أنها أمها، انحنيت فى تهذيب وأنا أكاد أقبل اليد الحنون التى سحبتنى إلى الداخل، وأراحنى إحساس واثق أن الردهة أعيد ترتيبها وتنظيفها لاستقبالى، مع أنى كما تعرف، لم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أدخل هذه المنطقة كلها من قبل، وجاء الرجل فى جلباب بلدى لا يخفى انتماء صاحبه إلى طبقة الموظفين، واتسعت ابتسامته فعادت ملامح حبيبتى إلى التسلل إلى وجه الأب كذلك، وأخذنى تحت إبطه فاستشرى فى جوانحى الدفء المفقود للأهل، حتى إنى قبلته فى صدغه بامتنان طفولى واستقر الوالد على المقعد فى اللحظة التى أصبحت جالسا أمامه. الشاى يا فتحية، جهزى - الأول - لقمة سريعة لتعويض الطريق الطويل المرهق، أهلا وسهلا وبعد أن أشعل سيجارة ومن داخل النفس الأول ضحك طويلا ثم أعلنها صريحة: نحن يهمنا راحة بنتنا، الحب والنسب مسائل قديمة انتهت، المهم أنت كيف حالك؟ الحمد لله أنا كما تعلم - هو الذى يتحدث - اشتغلت فى ألف شغلة، وعانيت وخبرت الدنيا: محصل فى قطار حلوان، مراقب دخول عربات المخزن، أمر صناعى لخرطوم تندفع منه المياه عند اشتعال الحريق تحديد التلفيات اليومية، الملجأ يا ابنى - ولا تزعل - ارحم، هل تصدق أننى فكرت أن أدخل الملجأ؟ وضحكنا. الشاى يا أم فتحى. وتابع فى هدوء رقيق ألم تفكر فى البحث عن أهلك أم عدم البحث أحسن؟ وتعالت الضحكات من جديد، قلت له فى جد مغموم: والله فكرت، وفعلا أخذت اسم الرجل الذى سلمنى وليدا إلى الشرطة ثم إلى الملجأ، غير أن مسجل الملجأ المختص بالملفات نصحنى ألا أتعب نفسى فى مثل هذه المسائل فهو موضوع متكرر وردىء من أوله إلى آخره، والحياة يجب أن نعيشها من خلال واقعنا وليس من خلال روافد الأهل والأقارب الذين قد يكونون - إن وجدوا - نكبة علينا، وتعالت الضحكات من جديد حينما هلت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حبيبتى شديدة الأناقة والتألق والابتسام، كدت أحتضنها. من كثرة تدفق الشجن فى الفؤاد، أحسست بأن القرون المنقضية كلها قد ذابت وتحولت إلى فيض إنسانى عذب، جلست بجوار أبيها فأسعدنى أن أقارن بين ملامحهما قلت - من باب التسلية ولكى أبدو غير مهتم إلا بالحاضر - لكن اسم الرجل الذى وجدنى أمام المسجد فى ذلك اليوم لم يبارح ذهنى: العضاض. تصور أن شخصا اسمه العضاض! قال أبوها متبسطا: لا لا، الدنيا مليانة بهذه الأسماء: العضاض والمصاص والنهاش والخطاف والبلاع وأبو خشم وأبو ناب وأبو لثة، وتوقف قليلا ثم أكمل: والضعضاع، وأخذ يرتل الاسم فى تلذذ: الضعضاع، بدأ الاسم يأخذ دوائر غير مألوفة فى ذهنى: الضعضاع، فعلا الرجل الذى وجدنى وليدا كان اسمه الضعضاع وليس العضاض، يعنى اختلط الأمر، وكله يتساوى فى النهاية، لكن أباها ظل منصتا لضجيج الاسم فى عقلى: الضعضاع. كان وجه الأب قد تمدد إلى أعلى ثم مال به حتى نظر إلى ابنته، بعدها واجهنى فى جدية هامسة: الضعضاع كان بقالا فى حى الخليفة، قلت، مشاركا فى الجدية، وفعلا كان هو مسجد الخليفة، فوقف الرجل فى هدوء وشبك يديه خلف ظهره فأحسست أن لهب السيجارة سوف يشتعل فى ملابسه من الخلف، وظل الرجل يتحرك بعيدا فدهمنى إحساس مفاجئ بأمر مفاجئ، هذا الرجل هو أبى، فقررت أن أقف أنا الآخر، وكانت ابتسامة حبيبتى لا تزال فرحة نضرة لم تذبل تحت اسم الضعضاع: الشاى يا أم فتحى، وكان الرجل قد وصل إلى نافذة وأمعن فيها: الشاى يا أم فتحى، صوت

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

غاضب محطم مضطرب، وهذه المرأة أهى أمى؟ وكنت قد وقفت أنا الآخر مستعدا للمواجهة، غير أن الرجل انتابته حركة سريعة فدخل عمق البيت وظلت حبيبتى تنقل بصرها فى جميع الأركان، أهو أبى، أم هى أمى؟ ما الفرق وصوت حوار مكسرمهروس يأتى من الداخل مضطربا لتأتى أم حبيبتى من دون شاى، وتأمر ابنتها بالمغادرة، وعيون المرأة الملتاعة تحتك بوجهها الشرس. وجاء الرجل ووقف بجوار زوجته، ثم ظل يمعنان النظر فى وجهى، كانا يقفان فى مواجهتى.

كل شىء فى الدنيا يا ابنى قسمة ونصيب ـ هذا صحيح، ولكن أود أن أفهم. اعذرنا يا ابنى، نعم، لكنى أود أن أفهم ـ عاد الرجل يهمس: كل شىء قسمة ونصيب ـ تحركت من مقعدى، فأتى صوته آمرا: اقعد مكانك، وكانت زوجته قد تحركت بوجه يطل منه الحرج، وفتحت الباب: بالسلامة يا ابنى، كل شىء قسمة ونصيب، وسرت وحدى حتى الباب، ونظرت خلفى فوجدت الوجوه شديدة الجمود والتصميم، ثم لم ألبث أن عدت لأواجهها. كانا يتمتمان فى اضطراب بآيات من القرآن الكريم، يلتمسان فى تهدج القراءة مأمنا، يدعوان فى توسل محزن أن يقيهما الله شر الماضى والحاضر والمستقبل، وسرت خطوة واحدة إلى الخلف، وصوتهما المرتجف من شر النفاثات فى العقد ألقى بى خارج الباب..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مسدس الأسلاف

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ظللت جالسا وأنا مطرق، هى المرة الأولى التى أزور فيها أخى منذ سنوات طويلة، وجاءت زوجته بالشاى للمرة الثانية وصوتها الفرحان يسبق حركتها، كان واضحا أنها تجملت لكن زينتها لم تكن متقنة، كما أن البيت - بيتنا القديم - أصابه التجميل المباغت فظهر أكثر تشوها، اختفت الأكلمة - السجاد التقليدى - ذات الدفء وافترشت الحصيرة البلاستيك، صحن البيت، إيه!

ورشفت من كوب الشاى ذى الجدران السميكة المغطاة بالزهور الغليظة، وأخباركم؟ جلست زوجة أخى على طرف مقعد لا أطراف له، وأخذت - فى أسلوب بالغ التكلف وشديد التقطيع - تحكى عن ابنتها الأولى التى تزوجت وسافرت ثم انهمرت فى اندفاع تشكو الغلاء وسوء الحال، فأيقنت أنها تقطع طريق أى محاولة أقوم بها للمطالبة بالميراث، شعرت بالملل يجتاحنى رغم أنى كنت تقافزت طويلا فى أنحاء منزلنا المبكر: هنا كنت أنام وهناك كنت أصنع خيولا من بوص الذرة، وهنا عاقبتنى أمى لاكتشاف الجيران استيلائى على بلح نخيلهم.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

ظللت جالسا ساهما وهى تتكلم وأنا أتجول بين الحقول وتحت النخيل وأنط فى أعمق الجداول، لكن السحب حملتنى كى أفرح بالمدينة وأشترك فى مظاهراتها وفى غنائم احتفالات ساستها، لكن الأمر أودى بى إلى صدام مبكر مع محصل أتوبيس وصاحب البيت ثم رئيسى فى العمل، وانهمكت سنوات فى الخروج من ورطة احتياز ورقة نقدية مزورة، ثم هناك موضوع المرأة التى وجدت نفسى مشدودا إليها فى مسرح صلاح عبد الصبور، واتضح لى أنها زوجة ضابط أمن الدولة أو مصنفات فنية أو مسطحات مائية أو حريق، فقاموا - بعد ساعات - بتفتيش بيتى بحثا عن مخدرات، والكارثة الأكبر فى صاحب المطعم الذى أهاننى وسط ضيوفى لانتقادى، ثم احتجاجى على سوء الطعام الذى دمر توازن ابتهاجنا، أعداء ثابتون لهم محل إقامة معروف فى المقاهى والمدارس والمطاعم وأقسام الشرطة وأكشاك تحصيل فواتير النور، وأعداء متحركون فى القطارات والشوارع والفنادق والأتوبيسات وسيارات التاكسى.

رصاصة واحدة يمكنها أن تشفى الغليل من هذه المشاكسات المتوالية المتوترة، أين هؤلاء من الأسلاف ذوى النفوس الهادئة واللسان الحلو والمجلس الدافئ والمواويل العريضة، أين الخبز البلدى والفطير واحتفالات الموالد. كانت زوجة أخى وصلت فى سردها إلى حكاية بت بنتها مع كاتب المواليد الذى

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

كتب أمام النوع «ذكر» ومطلوب رفع دعوى قضائية لتعديل بيان خاطئ أو درجة موظف هابط الوعى، ما ذنبهم. وتركت زوجة أخى تدخل المحاكم مع زوجها بحثا عن تصحيح، وظللت أدور وألف حتى جاء أخى الذى ما كاد يرانى حتى طفحت السعادة من وجهه، فقفز فى الهواء معانقا ثم باكيا، ملعون أبو الأيام التى قطعتنا لكنه - حينما جلس - بدأ يستريب فى حضورى، ظهر ذلك فى ارتعاشة سريعة فى عيونه الخابية المغبرة عاوزة الطبنجة، أى طبنجة؟ المسدس، أى مسدس؟ «المقروطة» آه «المقروطة» وسحب واو «المقروطة» وهو يضحك فى استخفاف غبى: نعم أريد «المقروطة» بندقية قصيرة مصنوعة فى بلدة قريبة اشتهرت زمنا بتصنيع مثل هذه الأسلحة تطلق عيارا ناريا واحدا، وكان أبى احتفظ بها سرا بعد مداهمة الشرطة لبعض بيوت القرية، بحثا عن سلاح فقاموا بإخفاء الأسلحة، بقيت عندنا لأن بيتنا بعيد عن كل المسائل، ولما عادت الأسلحة بقيت هذه المقروطة مع القسم الدائم بأننا لم نرها ولم تدخل بيتنا، ثم قام أبى بقص سنتيمترات من ماسورتها مع طلاء مؤخرتها بلون مخالف وقفا لكل الاشتباهات، وما حدث بعد ذلك معروف: التعليم والغربة والاستقرار فى المدينة الناعمة الغائلة الشرسة، الزيارات الدافئة بيننا ظلت متوالية أول سنوات، ثم هدأ إيقاعها وتمدد بعدها ما يكاد يكون انقطاعا فكرت مرارا - وفى أزمات محددة -

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أن ألجأ إلى أخى كى أحصل على جزء من نصيبى لكنى - بالنسبة له كنت فى نعيم دائم وترف عظيم، وما هو نصيبى: شريحة أرض وعدة نخلات وهذه البندقية. لكن أخى هو الأكبر الذى تحمل بشكل واضح عبء اكمال مسيرتى التى أودت بى فى النهاية إلى اشتعال العداء بينى وبين المناوئين الثابتين والمتحركين، وكان أخى لا يزال يخبط كفا بكف متعجبا من طلبى،الآن وكنت أجيبه من دون أن أدرك أننى أجيبه وظللت أتجول فى البيت القديم الملفوف بمزق جديدة حينما قام أخى إلى الداخل وغاب قليلا وعاد بها.

كان واضحا أنها ظلت مهملة سنوات طويلة: غبار ناشف جامد يغطى تفاصيلها، تناولتها فى ود مرتعش، وفتحتها بصعوبة وأنا أبدو ذا دراية بها، لابد أن تتسلح فى هذه المدينة الغائلة، ما دمنا فقدنا القدرة على استعمال أخلاق السلف من صدق وهدوء وطول بال وأخوة، احسست بأننى استعيد لياقتى التاريخية لمواجهة الواقع. مددت يدى فظلت معلقة فى الهواء حتى وضع أخى فيها ثلاث طلقات نحاسية داكنة خشنة، قال: هذا هو الباقى.. عشرون طلقة كانت مع المقروطة، أربع استخدمت يوم أن أنجب أول أولاده الذكور، واثنتان فى فرح بنت بيومى وخمس منفردة - كل واحدة فى وقت - لإحساسه ليلا بمن يتربص ببيته واثنتان.

جلست على الأرض أنظف المقروطة بقماشة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

مغموسة فى بترول، كانت البندقية القصيرة تمددت كالأخلاق الحميدة حتى وضعت وجهى فى دفء الأسلاف، وكان أبو زيد الهلالى سلامة قد ركب جوادا مطهما وشبح بسيفه رأس الزناتى خليفة، وبجواره صورة لصباح مع فريد الأطرش، وفوق الصورة بقايا ملصقات لصور بدت مستهلكة أو ممزقة أو مكحوتة أو فيها بقع من أثر الحلبة التى تستخدم فى اللصق، شارب الملك فؤاد «ربما يكون فاروق» وابتسامة عبد الناصر وشفيق جلال ونصف وجه رشدى أباظة فى مواجهة مع سميحة أيوب وأعلاهما جزء من رأس معروق من الصلاة لأنور السادات، و.. رأيت أن أتحرك خارج البيت لكى أجرب، أجرب المقروطة، كان أخى وقف خلفى، حينما رفعت ذراعى إلى أعلى ضاغطا على الزناد، فلم يستجب، أحسست بهذه الصعوبة ترهق أعصابى فاستعنت بيدى الثانية، جمعت كل أصابع اليدين، وظللت أضغط وأضغط، وانفجر العالم حولى، واندفع اللون الأحمر يغرق الصراخ المروع حولى وأحسست بالآلام الصارخة، وقد اشتعلت فى جسدى الممزق على الأرض.

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الفأس

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تزوج غيرها يا رجل «ألف امرأة تتمناك .. وظلت فكرة قتلها بالفأس مهيمنة على العقل، فإذا وصلت المسألة إلى نهايتها المخيفة سوف تقلل الفأس من عامل العمد والترصد، أى أن الفأس، بسبب تكوينها، ستقطع المسافة بعيدا عن الإعدام، كما أنها، بسبب تكوينها أيضا، ستقلل من فرصة نجاتها، ضربة واحدة على نافوخها، أو صدرها، ضربة واحدة لا تحتاج إلى أحكام كبيرة كالذى تحتاجه السكين أو البندقية، كما أن واحدا مثله (مدرس أو معلم)، كما يطلقون عليه من الناحية الرسمية سوف يستفيد - بالحتم - من عدم ملاءمة الأداة معه كما يتلاءم الساطور والسكين مع الجزار، والهراوة مع الفتوة، والبندقية مع أصحاب الأراضى. إن هذه المسائل تبدو هينة، لكنها تساعد المدافعين عنه، هذا إذا ساء الحال ووصل إلى مراحل الدفاع، وظل جسدها اللدن الجميل المتوحش يتفاعل مع الفأس ويتصادم معها صانعا وهجا انتقاميا حتى إنه قام بالفعل، وبدأ يبحث عن فأس.

(مبروك ستصبح الموجه الأول للمدرسة)

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فى مثل بيته الذى كان بيتا لأهله الفلاحين، يسهل أن تجد فأسا، أو حبلا أو قطعة من طنبورة أو ساقية، أو قادوسا، فلابد أن تترك الزراعة بصمتها على البيوت، حتى لو أصبح الذى يحتل المكان مدرسا، وظل يبحث فى الأركان ليرفع بقايا «القواديس» وأصابع المذراة وأسنان المحراث، أحس بإرهاق من دون أن يجد الفأس، وضايقه أنَ الغبار كساه، كما أن رائحة الغبار ملأت المنزل كله.

(ستصبح ناظرا فى أول حركة ترقيات)

فكر أن يذهب إلى أحد أصدقائه طالبا فأسا «وهل توجد قرينة ضده أكثر من ذلك» ثم قرر أن يطلبها من أخته (من المؤكد أنها سوف تنفى الواقعة عنه فيما بعد)، لكنه خشى أن تخرج المسألة من يده، فرأى أن يلجأ إلى أداة أخرى، فالفأس لا تود أن تكون أداته، لا يعرف لماذا شعر بالضيق أكثر عندما أراد التخلى عن الفأس، حتى إنه جلس فى جوار الحائط واجما.

(أول ناظر يصبح ناظرا من دون أن ينقل خارج المدرسة)

إن فكرة الخيانة - الفكرة فقط - جديرة بأن تمزق شغاف القلب، فما بالك بممارسة الخيانة ذاتها، وعادت صورتها تلح - مغروسة فى الإثم، وبدت ابتساماتها التى يعرفها وكان ينتشى لها، تستدير

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

قهقهة شيطانية، وتحول جسدها المشوق اللدن إلى نار إبليسية يخرج لهبها من العيون الحمراء، حتى إنه وقف فجأة ملدوغا من ألف فعل مرعب، لا يمكن أن تهدأ نفسه إلا إذا اندفعت الفأس، بقدراتها الثقيلة الخارقة، لتدمر هذا التكوين الجسدى الفائرالخائن، فاندفع إلى سطح المنزل، يرفع رواكد من حبال وسعف نخيل وسلال ممزقة ومقاطف مهترئة. حتى وجدها: الفأس ليس الفأس بالتحديد، بل مقدمتها الحديدية، أى الجزء المهم فيها، تلك التى تحتاج إلى هراوة مناسبة كى تصبح فأسا كاملة.

(درع التربية والتعليم جائزة أحسن مدرسة)

وظل ينبش فوق السطح وفى جذور الجدران ومداخل الكوات وبين بقايا الآثار القديمة وفى كل مرة يجد سكاكين عتيقة وأثرا من شباك صيادين.

آه: كان أبوه يحب صيد السمك. وأوانى نحاسية علاها الجنزار (أى صدأ النحاس) وفى يده المقدم الحديدية للفأس يحاول أن يعثر لها على هراوة مناسبة، وهو لا يصدق أن يخلو هذا البيت من عصا غليظة، طوال هذه السنوات. فهل يطلب عصا من الجيران؟ هل يعود ليوقع نفسه فى قرينة أخرى؟ حينئذ أحس بأن هوائى التليفزيون يغازله من بعيد، عاد إلى السطح، وفى أناة وصبر خلع العمود الخشبى للهوائى، وشعر بسعادة لا توصف عندما اتضح له أن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

العمود مناسب تماما، وبالضغط والمرونة أصبحت الفأس فأسا ذات يد صلبة وقوية.

(هناك مذكرة مرفوعة إلى مجلس الوزراء ليمددوا لك سنة أو سنتين بعد الإحالة إلى المعاش).

وألقى بالفأس فوق كتفه وخرج متوجها إلى الشارع، وكانت النار تخرج من الجسد فتشعل فى القلب فرنا، وفى العقل لهيبا، من الممكن الآن أن يوجه لها ضربة واحدة، ضربة واحدة على نافوخها أو صدرها، ضربة واحدة لا تحتاج إلى إحكام كبير.

اتكأ على حائط الشارع، فأسرع واحد - أو اثنان - كى يسنداه، حتى لا يقع - إعياء - أو شيخوخة - على الأرض..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحزن يميل للممازحة

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

يا أيها الحزن البدين تحية، بدين؟؟ نعم: بدين مقابل الحزن الثقيل، أسوأ مدخل لقصة قصيرة فى العالم والغيوم تتقافز فى حلق الصباح مبتسمة كأنها تود أن توزع الظلام على الجميع، وهناك - فى الأفق البعيد - إشارة واضحة لأفراح مبكرة: أناس يعلقون الأعلام كى ترفرف تحريكا للتفاؤل، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب، ودعك من العمل اليوم، اقرأ: ما أنا بقارئ، اخرج إلى الآفاق الممتدة، تناوشك الرغبة فى الصياعة أو الصعلكة، ثم يكون الغداء لحمة الرأس مع قليل من البراندى، ماذا لو دهمتنى الآن الملعونة التى يطاردنى جسدها البدين، حاربت وانهزمت، ثم حاربت وحوصرت، ثم حاربت وانتصرت بعدها أصبح الجسد البدين حلما ضاغطا، كارثة الكوارث أن تستحضر بدنا لأنثى لا تدرى بك، وأكبر من كارثة الكوارث هروب النجوم تحت مطاردة الجراد، ثم ينبعج الأفق عن كف ثقيلة تدق الباب، وقبل أن أفتح الباب مضطربا غاضبا، انزلقت الرسالة على البلاط، وأمعنت فى الرسالة عاجزا عن الانحناء لألتقطها، تراجعت للخلف ثم - آخر الأمر - انحنيت.

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

-١٠-

إذا كنتم عـاجـزين عن التـصـرف فـاسـمـحـوا لنا بالتصـرف، الله يخرب بيوتكم ويدمر رسـائلكم، كـانت الرسـالة الأولى منذ وقت طويل، أمك، مـالهـا؟ أمك تفعل ما لا يصح، ذهبت - يومهـا - إلى السينمـا، أمك تفعل.. شـاركت فى جنازة لا أعـرف لها صـاحـبا، ثم انهمكت فى حلقة لهو حول قرد نشط وذكى، لم أكن راغبـا فى العـودة إلى البيت، كل الأصـدقـاء المتناثرين فى العاصمة هربوا من مجال رغبتى فى اللجوء إليهم، تقافزت فى أتوبيسات وولجت شوارع، بعدها فوجئت بنفسى أمام البيت الذى أسكن فيه، هل أعـود إلى كهفى؟؟

لا أعـرف - حـتى اليـوم - عـدد الرسـائل التى حـاصـرتنى، ولا أعـرف - حـتى اليـوم - لماذا أنا بالذات الذى توجهوا إليه برسـائلهم: أمك تفعل مـا لا يصح، الإخوة موزعون على جسد الوطن البدين، قادرون على الفعل والبـراءة من الفعل، الأكـبـر لا يزال ضـابط شـرطة، وأولاده مـوزعـون فى عـواصم العـالم، الثـانى مـدير عـدة مـدارس تنتـشى على أرض واسـعـة فى الضاحية القـريبة، أختى الكبرى أرملة لقاض افترسه ذئب وحصلت على تعويض ساعدها على اللحاق بزوج آخـر، الأكـبـر منى مـبـاشـرة تاجـر أوراق الصـحف الراكدة، يعرف الطريق إلى تحقيق مآربه دون ضجيج. كـانت الرسـالة الثـالثـة تفحّ بالتـأنيب: هل يصح أن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تتركوا أمكم تفضحنا مع كلب، آه: لماذا أنا بالذات؟ وأخى الأصغر يدير مكتب شيخ الإسلام الكائن فى العاصمة القديمة. هناك أخ آخر يعمل مديرا ومستشارا وتاجرا ومهندسا وخبيرا فى الصباح، لماذا أنا بالذات؟ لماذا يا أمى لماذا؟؟ لو أنى عرفته - هذا الذى استدرجها - لأكلته بأسنانى، وهناك ابن لأخى الأوسط يكتب الأناشيد والأغنيات للإذاعة والتليفزيون، كيف يتسنى لى أن أجمع كل هذا الحشد حول مائدة، حيث أضع أمامهم تلك الخطابات؟؟ وأمى التى فى خاطرى وفى فمى؟؟

ماذا يمكننى أن أفعل؟ صفيحة بنزين؟؟ عدة طلقات من الرصاص؟ أخنقها بالكوفية؟ أسحبها من شعرها حتى عنان الغيوم وأتركها تسقط وسط دائرة إخوتى؟ ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقى إليك؟ لاحظ أن قصورا يشوب هذا البيت فى سفحتها إليك، امتداد ألف الضمير مبتور، ولو كان الضمير يقظا ومشبعا لما كان هذا الذى أنا فيه الآن، السم أفضل فى أول لقمة أقدمها لها، وعزمت مرارا أن أسافر من العاصمة متوجها إليها، إلى قريتنا إلى أمى، سبع أو ثمانى رسائل وأنا ألف وأدور حول نفسى أقرأ الجرائد وأسمع محطة لندن، ثم أنغمس فى مسلسلات التليفزيون، وأنحنى تقديرا لرئيسى الذى يحبنى ويسبغ علىّ من فضله المنتشى فى استمارات صرف مقابل المأموريات الوهمية، لماذا لا تتزوج يا عم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

اتركنى فى حالى، الله يسترك، اكتب لهم أن يتصرفوا معها، كيف؟ هو الحل الوحيد بالفعل، هل أترك الآخرين يقتلونها؟ أعوذ بالله؟ يقتلونه يقتلونها أفضل، وذهبت إلى أخى، ثم عدت دون أن أفصح، وذهبت إلى أختى ثم عدت وريقى ناشف، ثم ذهبت إلى أخى، فلم أجده، تركت له رسالة أننى فى حاجة قصوى إليه، لكنه لم يهتم، التقيت بأخى فى الطريق واندفع كلانا يحتضن الآخر، لقد بكيت، وافترقنا على موعد لقاء، أمى العزيزة لى وطن وهى التى هناك، بعيدا، بعيدا، تتثاءب فى ظلال سحب قديمة، وهى الحما والسكن، وذهبت إلى أخى ففتح موضوع عدم زواجى، قلت له إن موضوعا آخر أخطر من زواجى، لكنه أشاح بوجهه غاضبا، لو أنى أفكر بشكل منظم لقتلت هذا العدد الوفير من الإخوة قبل أن أسافر إلى أمى.

-٢-

البقاء لله، فى انتظارك لتشييع جنازتها وانهمرت فى النحيب والبرقية فى يدى، قلت فى نفسى - بعد أن أفقت - تصرف بمفردك، وبالتالى فسوف يتصرف جميع إخوتك بمفردهم أيضا، وتقافزت الغيوم من النافذة رافعة عن كاهلى الأثقال، قبل ذلك أو بعد ذلك فإنها أمى، التى فى خاطرى وفى فمى، ولم يكن الطريق إلى القطار مزدحما، ولا القطار ذاته كان مزدحما، جهزت النقود لأدفع قيمة التذكرة لكن المحصل لم يحضر، ظللت مقطوع الصلة بمن يثرثرون

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

حولى، تجولت فى بطن أمى حتى ولدتنى، ظللت فترة على صدرها - بكيت فعرف الذين حولى أننى فى محنة. ظللت خلال المائة كيلومتر الأولى أستحلب ثدى أمى، وكلما ترجرج الثدى مع اهتزاز القطار بكيت، وكلما توقف القطار - بغتة - أو بهدوء - انخلعت حلمة الثدى من فمى، وفى المائة كيلو متر التالية ظللت ألهو حول أمى، أتقافز بين الدقيق والسحب والفرن والعجين والأرانب ونيران الاشتعال، ومن كيلو متر وآخر تشكونى أمى لواحد من إخوتى، جهزت النقود كى أدفع قيمة التذكرة لكن المحصل لم يحضر، كنت غاليا على أمى مما أتاح لى فرصا عديدة لأضرب إخوتى، واخترقت الحقول والقنوات والمدارس وعيادات البلهارسيا ودود البطن وبطون المقابر، وهأنذا أعيش مستورا دون ضجيج، ذات مرة اقتنيت قطة لكنها لم تلبث أن هربت فور حلول موسم التواصل، تصور؟ بكيت عليها، دخلت امرأة على الخليفة هارون الرشيد لتشكو إليه عامله فى الكوفة، فما وجدت الخليفة فاضطرت أن تتزوج عامله. وهناك قصة المرأة التى أكلت ذراع زوجها، وعندما كان الغضب يشتد بأمى: لا يمكن لك أن تجد رجلا أو امرأة قادرة على المواجهة أبى وجدى وإخوتى وأعمامى وخالاتى فى كفة وأمى فى كفة، المصيبة أن الخطاب الأول حين جاء يستصرخنى اعتقدت أن أمى دهمت القرية كلها غضبا واعتدادا واحتدادا، فمن ذا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الذى فعلها معها وضغط بحذائه على رؤوس كل القبيلة فى الطين؟ أعوذ بالله، الرحمة يا رحمن، وعدت أتحسس النقود لكن محصل القطار لم يحضر، وفى المائة كيلو متر الثالثة ران على القلب استسلام وهدوء، فلتذهب أمى إلى حيث يحاسبها الله، وستظل الكيلومترات الثلاثمائة عازلا بينى وبين العار، ارحمنا يا رب، كيف سيعيشون - أقصد بقية أهلى - فى قرية يبدأ الشرف نموه فيها من داخل الأفكار المجردة، فما بالك والكارثة فعل، فعل، نعم فعل يتغلغل فى حطب النار واشتعال الدهن وكحل العيون؟ لماذا لا يحاصر أهلى هذا الذى فعلها ويدقون رقبته، ويعلقون جسده المدمم فى سويقة القرية؟ هل أستطيع أن أقوم بذلك؟ السؤال مرة أخرى: أليس من الواجب أن أقوم بذلك؟ أن أكون الرجل الذى يرفع رأس الجماعة من معاجن النار، التثاؤب رحمة من الله ولابد من الإغفاء، فعدت من جديد اطمئن على نقود التذكرة، لكن المحصل لم يحضر.

-٣-

كنت أعرف أن الحشود سوف تتجمع عزاء لنا، ووجوه عديدة أعرفها وإن جفت أسماؤهم لا إله إلا الله، كانت أميرة وكانت عظيمة، وكانت خير أهل القرية جميعا، هل يقصدون بذلك النكاية والسخرية؟ كانت فاضلة، وكانت حكيمة، وكانت تعرف الله، كدت أضحك أو أبكى، ظللت أتسلل بعيونى فى عيون

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

الحشود علىّ أعثر على ابن الكلب الواطِى، أقوام قادمون من القرى المجاورج ـ التى كثيرا ما انتصرنا عليهم فى معارك النساء والبنات والأسواق والانتخابات والامتحانات ومصادقة رجال الإدارة ـ بالتأكيد هم يضمرون لنا سخرية يكتمها أدب اللحظة، لكن الأمر بعد ذلك سوف يستشرى، نظرت إلى السماء مباشرة وطلبت من الله أن يساعدنى فى معرفة هذا الوغد، لن يريحنى سوى أن أفرمه أو أحطم ضلوعه، أو أهشم جمجمته بيد الهون، الرصاص يصلح لاصطياده فقط دون التشفى، الملعون ابن الملعون، وثار الغبار وانفجر الصراخ الملتاع، وبدأ المشهد الباكى لجثمان أمى داخل الحسنية يتأرجح فوق الرقاب، واندفعت الجماهير الغفيرة تستصرخ الوداع النهائى من الواحد القهار، لم أكن أدرك ـ خلال هذا الغياب عن قريتى ـ أن أحفاد أمى أنجبوا أحفادا يمكنهم أن يصرخوا ويلتاعوا مودعين جدتهم، فإن كان الأمر كذلك، فلماذا حدث ما حدث؟ كيف اخترق هذا الوغد كل الكوادر المحيطة بالبيت الكبير الذى تقيم فيه أمى؟ هل يمكن أن تكون أمى هى التى اخترقت هذه الكوادر من أبنائها وأحفادها وأهلنا كلهم لتتواصل مع هذا الذى ألعنه دون أن أعرف من هو؟ العار لا يتجزأ ولا يخضع للتحليلات، وظلت الحشود تسعى حول المشهد النازف دعاء ودموعا، الرحمة يا رب، وانفتح الغمام ليلتقط الدعاء ويزفه إلى أعلى، وانخفض الصراخ حينما وصلنا إلى المقبرة، جلست

معرفتى * www.liilas.com/vb3 * me3refaty.blogspot.com

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

بعيدا وحولى أفراد من قدماء الأصدقاء ظلوا يريقون فوق رأسى المواساة، كان واضحا ـ كما تعودنا ـ أن المقبرة فتحت ونظفت وتم إعدادها من وقت مبكر لاستقبال حدث أمى، فقد انتهى الدفن بسرعة ، وشال طالبو الغفران الشيالة ـ أو الحسنية ـ أو النقالة مع الأغطية الخارجية ـ وهرعوا بها عائدين إلى القرية.. ظللت أبكى.

يكون مؤلما أن تعرف أننى ـ حين عدت ـ نمت بعمق فى حجرتى القديمة بالبيت الكبير، وأننى حاولت أن أبكى أو استرحم ـ بشكل حار وحقيقى ـ ففشلت، دهمتنى رؤى غريبة كانت أمى ـ فيها ـ تعجن وتخبز، وكانت أمى تطبخ وتغسل، وكانت أمى تضربنى كلما تعديت حدودى فى اللهو والمرح والعدوان على أى أحد، وكانت أمى تأمر وتنهر ـ حتى أبى، لماذا لم أتذكر أبى؟ لماذا ظل يتفادى ذاكرتى؟ حتى فى الأحلام ظل بعيدا، لماذا لا يقوم الآن من مدفنه ويأخذ دوره فى الانتقام؟ هل يمكن أن ينتقم وهو ميت؟ أبى لم يمت، ولو مزقوا جسده ووزعوه على أركان الأرض فإنه يستطيع أن يتجمع وينتقم، نمت مرة أخرى حتى بدأت الكلوبات والمصابيح تلقى بأضوائها وأصواتها فى كل مكان، نظفت نفسى وأشعلت سيجارة، وخرجت إلى المأتم، الظلام حل على المكان والأنوار أزاحته إلى الخلف، أود أن أسافر، أن أعود إلى عملى، كل شىء يقف ضدى مسنونا حادا يخترق لحمى. إخوتى جلسوا

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

فى مقدمة المأتم، أو وقفوا استعدادا لاستقبال المعزين، آيات القرآن الكريم تسعى بين الجماجم حاملة الصبر والرضوخ لمشيئة الله، ظللت جالسا فى مؤخرة المأتم غير راغب فى تقبل العزاء، هل يعرف إخوتى ما أعرف؟ من هو الذى أفسد حياتى كلها؟ هذا الذى ـ أتصوره ـ يسعى آخر الليل، فى هدوء، حتى يصل إلى باب أمى، لا إله إلا الله، كيف يتسنى لى أن أجعله موعظة أو مقطعا فى موال أو جزءا من أغنيبة شعبية، وإذ بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابرة ساجدينا، عليك أن ترتاح فلن يبلغ الرضيع عندنا فطاما بعد اليوم، وسوف ترتاح جباه الجبابرة من السجود، كل كلاب العالم سوف تطارد أعقابنا، كنت مولعا بالشعر، أنام بين قوافيه، وأمارس العشق فى ظلال أعمدته، وأبرز عضلات قدراتى تحت سقف أبياته العلنية المثيرة، فمن يدلنى على هذا الذى هشم القصيدة ودمر التوازن؟ لكنى ـ حين وصلت إلى هذه النقطة ـ اضطربت، ثمة عيون لرجل غريب تمعن فى وجهى، كان جالسا ـ القرفصاء ـ على الدكة، وهى جلسة غير مرغوب فيها خلال المأتم، عيونه مركزة فى وجهى، وكأنه يخلع من عقلى آخر نقطة ارتكاز، أشرت له بالتحية شاكرا عزاءه لكنه لم يرد، ظل سادرا، واستمرت عيونه مفتوحة، قط يتنمر، أشرت إليه متسائلا، لم تطرق رموشه، أحسست بالغضب يدهمنى، لكن الاندهاش حرك الغضب جانبا، نعم؟ رفع رأسه قليلا وقال بصوت كالفحيح: هل تريد أن

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

تعرفه؟ سألته ـ مع بوادر الغضب: ماذا تريد؟ قال من جديد: هل تريد أن تعرفه؟ ظل كلانا يمعن فى الآخر، قال فى هدوء أصفر إن كنت تريد أن تعرف هذا الذى.. وصمت، ثم أضاف: من عادة أمثال هذا، من عادة العشاق، كرر من جديد: من عادة العشاق الذين تموت حبيباتهم، (وهو لا يزال ممعنا دون حياء) أن يسعوا لوداعهن وداعا خاصا، سوف يذهب صاحبك (نعم قالها هكذا: صاحبك)، إلى المقبرة فى السحر، بعد منتصف الليل وقبل الفجر، لن يستطيع أن ينام إلا إذا قرأ الفاتحة على قبرها.. تحركت لكى أكون قريبا منه لأستفسر عن التفاصيل، كان جسدى يضطرب، وعقلى يضطرب وفمى يسيل منه اللعاب، لكن الرجل فك جلسة القرفصاء، وقفز من فوق الدكة ومضى..

❖ ❖ ❖ ❖

يا أيها الحزن البدين تحية، بدين؟؟ نعم بدين فى مثل حجم العار الذى يملؤك، أسوأ نهاية لقصة قصيرة فى العالم، والظلام يتقافز وسط بقع الضوء، لم يكن ثمة حل سوى الانصياع والامتثال لما فى القلب، ظللت أسعى حتى وصلت إلى منطقة المقابر، ها هو المكان الذى كنت تخشاه طوال عمرك، اقتحم المنطقة وتوجه مباشرة إلى قبر أمك، كانت الأضواء تتسلل خافتة حزينة من الآفاق السماوية، تلمست موقعا بين حائطين وصنعت كمينى الخاص، قد كان عندى بلبل فى قفص من ذهب، ومع ذلك فإننى لم

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

أشهد بلبلا فى حياتى، وإذا البلايا تابعتك عيونها، ثم فالبلايا كلهن خراب ـ صمت المقابر يحوى بين طبقاته العفاريت المرعبة، لكنه يظل صمتا صامتا، تحسست أصابعى كلها التى تكلل كفتى، أصابعى قوية تصلح للخنق المباغت، والوقت يمر فوق أنفاسى بأقدامه الثقيلة، سوف أخنقه، وأظل أضغط فأخنقه، ولن أتورع أن أبقر فوهة القبر وأدفنه معها، أو أخرجها لكى يتنسم جسدها العفن جسده العفن. حتى نباح الكلاب غاص فى الأفق البعيد، حينذاك صدقت الرؤيا، كان ثمة شبح قادم من بعيد، الأضواء الكلية للسماء القادمة من خلفه أظهرته واضحا، الملعون، يقترب، وبالفعل ما كاد يصل إلى المقبرة، حتى اتكأ على شاهدها البارز ووقف، كان يتلو الأدعيات، حاولت أن أتبين ملامحه، انحنى على فتحة القبر وتناول بقايا التراب المبتل، قرأ الفاتحة فى هدوء فظللت منتظرا أن يتحرك، بينى وبينه أمتار قليلة، خشيت أن يرتفع تنفسى فيكشفنى ويهرب، ضغطت على أنفاسى، ظل يتمتم وهو يتلمس بكفيه ـ الاثنين ـ شاهد القبر، ثم بدأ فى التحرك، كان واضحا أنه يكافح البكاء، وبكى فعلا.. تجمدت قليلا، وما كدت أهم بالهجوم الفاتك عليه، حتى توقفت من جديد، فقد كان ثمة واحد آخر جاء وحل محله، ثم الثالث فالرابع، فالعاشر..

❖ ❖ ❖ ❖

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

المحتويات

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

www.liilas.com/vb3 * me3refaty *

دار مصر المحروسة

طبعة خاصة لمكتبة الأسرة